ثريا ملحس قلعجي

الناس والآخرون

قصص مختارة من الآداب العالمية

منشورات دار المكشوف

الطبعة الاولى ، بيروت — لبنان ، ١٩٤٧

جميع الحقوق محفوظة

الناس والاخرون

للكاتب الايطالي ايليو فيتوريني

امتطى الرجل دراجته ، ووضع المرأة أمامه ، واتجه بها شطر ساحة كافور .

– الى اين تقودني ؟

– الى المكان الذي انام فيه .

– أهو بعيد من هنا ؟

– على مقربة من ساحة سامبيون .

أسندت اليه المرأة احدى كتفيها ، وأراحت ظهرها على صدره .

– ماذا بك ؟

– اني افكر .

– بمَ تفكر ؟

– بهذا الشتاء ، وبكل شتاء آخر ، بزمننا كله .

– أليس الزمن معنا ؟ انه لم يضع .

كان شعرها يتلاعب بين القبعة التي تعتمر بها وبين عنق قميصها ، فالتقط باسنانه خصلة منه . وكانا قد اجتازا شارع بونتاشيو ، وحاذيا الحديقة حيث يتألق الشتاء في وحدة الاشجار الكبيرة العارية . فهتف

– ما اجمل هذا الشتاء !

– أصحيح انه اجمل شتاء شهدته ايطاليا ؟

ـ أجل ، منذ سنة ١٩٠٨ .

ـ منذ الشتاء الذي ولدت انا فيه .

ـ منذ الشتاء الذي ولدت فيه !

ـ كيف تعرف متى ولدت ؟

ـ ألست انت التي اخبرتني ؟

ـ يسوئني اني قلت لك ذلك .

ـ لا ارى مبرراً لاستيائك . ولمَ تستائين في الواقع ؟

ـ لما احسه اليوم !

ـ ألم يكن هذا الاحساس يخامرك يوم أنبأتني بتاريخ مولدك ؟

ـ كانت تساورني حينذاك عاطفة اخرى ، فاشعر بسرور غريب لكوني اكبر منك سناً .

ـ اني احب ان تكوني كذلك ...

ـ أما انا فاتمنى ، اليوم ، لو كنت اصغر منك ...

ـ الست كذلك بالحقيقة ؟ انك اوفر شباباً .

ـ أتمنى لو اني أصغرك بعشرة اعوام على الاقل .

ـ الست كذلك بالحقيقة ؟ بل انك لتصغرينني بأكثر من عشرة أعوام . انت ما تزالين فتاة صغيرة .

ـ أتمنى لو انك تكبرني بكثير من السنين .

ـ واني لكذلك ... أنا ابوك ايضاً. بل انا جد لك !

ـ انك لا تكبرني ولا بيوم واحد .

ـ انا اكبر منك بقرن كامل .

ـ كلا .

ــ ولم لا ؟ لقد شهدت الشتاء الذي ولدت فيه .

ــ كلا . انني انا التي جعلتك تولد . لقد ولدت انت لانني اردت انا ذلك . لقد ولدت انا اولاً ... ثم اردت ان تولد أنت ايضاً ... لانني لم اشأ ان احيا في عالم لا تعيش فيه انت .

صمتت هنيهة ، ثم استطردت :

ــ ولكن لنسرع الآن .

ــ أجل يا بوت .

رنت اليه ، لاول مرة منذ انطلقت بها الدراجة ، وحدقت به ، وقالت له :

ــ أتستطيع أن تدعوني : بوت !

ــ أجل يا بوت ، ولمَ لا استطيع ذلك !

ــ وانت ، من انت ؟

ــ أنسيت من انا ؟

ــ ماذا تدعى الآن ؟

ــ كما ادعى دائماً ...

ــ ماذا يسميك رفاقك الآن ؟

ــ ليس لي بالحقيقة اسم صحيح .

ــ قل لي ، كيف يدعونك هذه الايام ؟

ــ بن رقم ٢ .

ــ بن رقم ٢ ؟ اني لا استطيع ان ادعوك بهذا الاسم .

ــ ألم اقل لك انه ليس لي الان اسم صحيح !

ــ لقد كان لك في الماضي اسم كبقية الاسماء .

– كنت ازاول يومذاك عملاً آخر .

– لماذا استبدلته بآخر ؟

– أكنت تؤثرين أن لا استبدله ؟

– اني أخاف هذا العمل الآخر !

ضغط بن رقم ٢ فجأة على المكبح ، ووضـع قدمه على الارض ، وقال ، وكانا قد بلغا ساحة سامبيون :

– انزلي .

– ماذا حدث ؟ هل وصلنا ؟

– كلا ، لم نصل بعد .

كان ينظر من فوق رأسها ، وهي ما تزال على الدراجة فنظرت هي ايضاً ، فطالعها جلال الشتاء بين صفين لا حد لهما من الاشجار العارية ، وبدت لها من خلال النور الشفـاف ، على بعد مئتي متر منها ، سيارة نقل واقفة في منتصف الطريق ، ورجال سود متجمعون حولها وفي ايديهم عصي تلمع كما يلمع زجاج سيارتهم .

قال بن رقم ٢ : انها دورية !

فوثبت برت الى الارض ، فقال :

– كلا ... اصعدي ...

كان ثمة رجال يقتربون ، وكأنهم قادمون من الافق ، عبر ذينك الصفين من الاشجار الكبيرة ، وكانوا جميعاً يحملون عصياً تلمع . وقد ادركت برت ان هذه العصي هي بنادق ، وشاهدت رجلاً ذا قبعة كبيرة يتقدم الى منتصف الطريق ، في قلب ذلك الصباح المنير ، متلفتاً حوله عند كل خطوة يخطوها ، وهو يهز بيده سوطاً يصفر ويتلوى كافعى.

واستوت برت الى الدراجة وهي تراقب ذلك الرجل ، كيف يصرخ في الرجال الذين معه ، ويضرب الهواء بسوطه الاسود .

قال بن رقم ٢ : لنتابع سيرنا حتى زاوية هـــذه الكتلة من المنازل ، ثم ننعطف نحو أول شارع ونعود الى الوراء .

وسار بدراجته متمهلاً .

وكانت ساحة سامبيون ، بأستثناء هؤلاء الرجال السود ، خاليــة ، تحت شمس الشتاء ، وقد اغلقت جميع المقاهي والمتاجر فيها ، وأوصدت جميع أبوابها ونوافذها ، وساد السكون خرائبها الخرساء .

انقضت ثلاثون ثانية طويلة حتى بلغ بن رقم ٢ بدراجته الزاوية التي اتجه اليها ، وأنفق خمس ثوان اخريات حتى وصل الى الشارع الذي يقصد ، وحينئذ صرخ الرجل ذو السوط الاسود .

قال بن رقم ٢ لبرت : لا تخشي شيئاً ، ولا تخافي اذا ما اطلقوا النار .

وانطلقت الدراجة في الشارع بأقصى سرعتهـا ، فبلغت الزاوية الثانية في ثوان معدودات . وكان يبدو كأن المدينــة بأسرها ليس فيها سوى ذلك الصوت المتكسر ... ذلك الضرب من العواء يصدر عن صاحب السوط الاسود الذي كان لايفتأ يصرخ دون انقطاع .

وفي اقصى الشارع كان ثمة رجال آخرون مسلحون بالبنادق . وفي نهاية الطريق المتفرعة من ذلك الشارع والتي اراد بن رقم ٢ ان يعود منها الى الوراء ، كان ينتصب أيضاً رجال سود يترصدون ببنــادقهم .ولكن لم يسمع أي طلق ناري ... لم يسمع سوى ذلك الصوت المتكسر ، صوت الرجل ذي السوط الاسود ، وقد بدأ يبتعد

شيئاً فشيئاً .

قال بن رقم ٢ : هذا الرجل هو « الكلب الاسود » ... هل رأيته؟

– اجل . ولكن الطريق مسدودة من هنا ايضاً .

– لا ضير في ذلك . سنجتاز الآن الساحة من جديد ، ثم نذهب الى المنزل .

– أهو منزلك أنت ؟

– هو منزل أصدقاء لي . انه ملجأ أمين .

أطلق الدراجة على أقصى سرعتها ، وانعطف بهـا من جديد ، فاجتازت بهما الساحة وبلغا الشارع المقابل . ولم تنظر برت الى أين يقودها هذا الرفيق .

فتحت لهما الباب امرأة طويلة القامة ، نحيلة القد ، بيضاء الشعر ، فحياها بن رقم ٢ قائلا :

– نعمت صباحاً يا سلفا .

فأجابت العجوز الجميلة : نعمت صباحاً . من يصحبك ؟ أهي رفيقتك ؟

– انها رفيقة لي .

– يا للخسارة ! انه دائماً مع رفيقات له ، ولكني لم أره مع رفيقته . أليس لهذا الرجل امرأة ؟ أليس له رفيقة ؟

نظرت برت الى بن رقم ٢ حـائرة ، ولم تجب . واستطردت العجوز الجميلة قائلة :

– ادخلا ... ادخلا ... أيجب ان ادعكما منفردين ؟ ألديك ما تقوله لي ؟ ان ولدي بعيدان ، وسأذهب أنا بعد لحظة واحدة . وفي استطاعتكما ان تبقيا حتى الغد . أليس لديك ما تقوله لي ؟

قال ين رقم ٢ : لقد تعرضنا لخطر عظيم ولكننا خرجنا منه سالمين .

فقالت العجوز : لقد سمعت صراخ الكلب الاسود .

ثم أضافت : حقاً ، انه لمن المؤسف ...

– ما هو الشيء المؤسف ؟

أجابت وهي تنظر الى برت :

– من المؤسف انها ليست رفيقتك . لقد اعجبتني .

– اعجبتك ؟ انها لتعجبني أنا ايضاً .

وتابع ضاحكاً :

– انها رفيقة باسلة .

صاحت العجوز الجميلة : اما انا فاني اتحدث كـأمرأة . انك لا تنظر الينا ابداً كنساء .

وظلت تنظر الى برت بحرارة ، بينما لزمت هذه الصمت ، لا تجيب ولا تتحدث ، كأنها لم تتكلم في حياتها مرة واحدة . واعترض ين رقم ٢ على قول العجوز فتابعت :

– اجل ، اني ليسرني ان تكون رفيقتك . اكون سعيدة لو كانت كذلك ، حتى لو لم تكن رفيقة . افضل ان لا تكون سوى امرأة ، ان لا تكون سوى رفيقتك . أصحيح انها ليست رفيقتك ؟

– ولكن لماذا يا سلفا ؟ لمَ تريدين ان تكون رفيقتي ؟

ونظر الى برت بعينيه اللتين كانتا تبرقان . ولبثت برت صامتة مطرقة ، تحت نظراته ونظراتها ، تحت نظراتها ، لم تقل شيئاً حتى بعينيها .

– أترى ذلك مستغرباً ؟ انه ليس غريباً البتة . فنحن لم نرك يوماً مع رفيقة لك ، واننا انرغب في ان تكون لك رفيقة ما . ألا نستطيع ان نتمنى ذلك ؟

أجالت نظرها بين الرجل والمرأة واستطردت قائلة :

– الا نستطيع ان نتمنى ذلك لرجل عزيز علينا ؟ ان الرجل ليكون سعيداً حينما تكون له رفيقة . فهلا نستطيع ان نتمنى لرجل عزيز علينا ان يكون سعيداً ؟ اما انا فاني لأرغب من كل قلبي ان تتمتع بنصيب وافر من السعادة .

– شكراً لك يا سلفا ، ولكن ...

– ولكن ماذا ؟ ألا نستطيع ان نتمنى لك الخير ؟ نحن انما نعمل ليكون الناس كلهم سعداء . ولعمري ، أي معنى يكون لعملنا اذا لم يؤد الى هذه الغاية ؟ من اجل هذا وحده نعمل نحن . أليس من اجله نعمل ؟

قال ين رقم ٢ : نعم ، من اجل ذلك نعمل .

ورددت هي : أليس من اجل ذلك نعمل ؟

كانت تجيل انظارها باستمرار بين الرجل والمرأة ، مرددة بحرارة :

– يجب ان يكون الناس سعداء . اي معنى يكون لعملنا اذا لم يستطع الناس ان يصبحوا سعداء ؟

ثم قالت : اجيبي انت ايتها الفتاة ، أيكون لنضالنا معنى ؟

فقالت برت : لا ادري !

اجابت وكأنها لم تجب ، ورفعت رأسها لحظة ولكن كان يبدو كأنها لم ترفعه . ولبثت صامتة مطرقة ، بينما ظلت العجوز الجميلة تردد:

— أيكون لعملنا كله اي معنى ؟

اجاب بن رقم ٢ : كلا ، يا سلفا ، لا احسب انه يكون له معنى .

وقالت هي مؤكدة : لن يكون له معنى ... بل لن يكون حينئذ لأي شيء في العالم أي معنى ! أليس كذلك أيتها الفتاة ؟

أجابت برت : لا أعلم .

وتساءلت العجوز : أم ترى يكون ثمة معنى لشيء ما في هذا العالم ؟

فقال بن رقم ٢ : كلا ، لا اظن ذلك .

واستطردت هي بإصرار : أيكون حينئذ معنى ما لصحفنا السرية ، وللقنابل التي نصنعها ، ولكفاحنا المستميت ؟ ورجالنا الذين اعدموا ، أيكون لاستشهادهم معنى ؟ أيبقى في هذه الحالة معنى لشيء ما في العالم ؟

— كلا ... كلا !

— أم يكون ثمة معنى للاعداء الذين نحاربهم ! كلا ، كلا . يجب ان يصبح في ميسور الناس جميعاً ان يكونوا سعداء . وليس لشيء ما أي معنى اذا لم يستطع الناس ان يكونوا كذلك . اليس من اجل هذا وحده نرى ثمة معنى لكل شيء في العالم !

— نعم ، من اجل هذا وحده .

— أجيبي أنت ايتها الفتاة ، أليس من أجل هذا وحده ؟

رافق برت الى محطة الترام ثم تبع القاطرة برهة . وكان يراها من وراء الزجاج ... يرى يدها التي فتحتها واسندتها على الزجاج من اجله ، ويرى عينيها المضيئتين تتسعان في نظرة ساجية تشهد من

خلالها صفاء الشتاء . ثم حياها مودعاً ، وذهب من ناحية اخرى .

ظل ، حتى الظهر تقريباً ، يروح ويجيء على دراجته ، في مختلف الشوارع ، بين بورتا نوفا وبورتا فينيسيا . وقبل الساعة الثانية عشرة بربع ساعة ، توقف أمام احدى نوافذ باعة الصحف ، فتقدمت منه امرأة كانت تشتري جريدة ، وسألته عما به ، وفتحت حقيبتها في اثناء ذلك ، فادخل يده فيها واخرج منها مسدساً وضعه بسرعة في جيب معطفه .

فقال الرجل : هجوم !

فقالت المرأة : هجوم !

افترقا .

كان ينتظره ، غير بعيد ، ثلاثة رجال يرتدون ثياباً رمادية ويحملون علبة اشبه بالعلب التي يضع فيها الحدادون الجوالون ادوات عملهم ، وقد تركوا دراجاتهم الى جانب الرصيف وراء قصر كبير . فابتدرهم قائلاً : « ايه ... » وكأنه يحييهم بهذه الكلمة .

كان اولئك الثلاثة شباناً تبدو عليهم سيماء الغبطة ، فسألوه بعيون ضاحكة :

— والآن ؟

— لقد أريتكم اياه أمس . انهم يخرجون عند الظهر ...

— بعد ثلاث دقائق .

— تمرون انتم على دراجاتكم ، وتنتظرون حتى يصعدوا الى السيارة .

— وعندما يصعدون نقبل نحن ...

— عندما تبدأ السيارة بالمسير .

– اليس عندما يصعدون ؟
– عندما تبدأ السيارة بالمسير .
– وانت ايها القائد ؟
– سأبقى أنا خلفكم كما قلت لكم .
تبادل الشبان النظر ، ثم قالوا :
– ليس ذلك ضرورياً .
فقال ين رقم ٢ : هيا ، لقد حان الوقت .
امتطى الشبان الثلاثة دراجاتهم :
– هجوم !
– هجوم !
وابتعدوا .

مر ين رقم ٢ ، وهو يمسك دراجته بيده ، أمام واجهة القصر ، بين سيارة سوداء واقفة هناك وسلم يقف على رأسها للحراسة فتى الماني أشقر من فرق الهجوم ، وشمس الشتاء تلمع على انبوب بندقيته الرشاشة . وقام الفتى فجأة بحركة سريعة ، فقد خرج من القصر أربعة رجال يرتدون معاطف عسكرية طويلة .

شاهد ين رقم ٢ وجوههم : ثلاثة وجوه المانية ووجه ايطالي ذي حاجبين رماديين ، وواصل سيره حتى الزاوية دون ان يلتفت الى الوراء .

مر به الشبان الثلاثة على دراجاتهم ، متباطئين متهامسين ، دون ان ينظروا اليه ، وكانت شعورهم البنية المتلامعة تحت شمس الشتاء ، تشبه شعور الحيوانات البنية اللون . فتلفت حينئذ خلفه ، متظاهراً بأنه يستعد لامتطاء دراجته ، فشاهد الفتى الاشقر ما يزال محافظاً في

رأس السلم على حركته الفجائية ، ورأى باب السيارة مفتوحاً وقد أمسك به السائق . وكان الرجال الاربعة ذوو المعاطف العسكرية الطويلة قد بلغوا أسفل السلم .

كان الرجال الثلاثة ذوو الوجوه الالمانية يتصافحون . اما الرجل الاخر ذو الوجه الايطالي فكان يتقدمهم قليلاً ، وقد انحنى برأسه الى الامام ، ثم اتجه نحو السيارة ليستقلها .

وصل الشبان الثلاثة على دراجاتهم ، والالمان ما يزالون يتصافحون . فحدق ين رقم ٢ ، واذا بالشبان يتابعون سيرهم ، فقال في نفسه : حسناً ، هذا أفضل !

ودخل السيارة اثنان من الالمان الثلاثة ، واغلق السائق الباب واستوى الى مكانه ، ولبث الالماني الذي بقي امام السلم يحيي زميليه الراحلين ، بينما كان ين رقم ٢ يجيل انظاره بين ذلك الفتى الاشقر المنتصب على رأس السلم وهذا الضابط الالماني الذي يحيي زميليه في اسفلها .

وتحركت السيارة اخيراً . واذا بالشبان الثلاثة يمرون بها من جانب واحد . وشاهد ين رقم ٢ أيديهم ترتفع ، ثم سمع ثلاثة انفجارات متعاقبة .

قال لنفسه : لقد تم الامر بنجاح !

وامتطى دراجته بعد ان شهر مسدسه .

وكان الفتى الاشقر يطلق النار من أعلى السلم على الشبان الثلاثة المنطلقين على دراجاتهم ، بينما شرع الضابط الذي لبث يحيي رفيقيه حتى اللحظة الاخيرة يعبىء مسدسه .

وبدأ الفتى يصيح بالالمانية وهو يطلق النار على الشبان الهاربين. فقال بن رقم ٢ :

– ماذا تريد انت ؟ ماذا تريد انت ايضاً ؟

وشعر بنفسه يطلق النار مرتين ، فيسقط الفتى الاشقر منطوياً على سلاحه ، ثم رأى الضابط يلتفت نحوه ويشرع في اطلاق النار عليه .

خيل اليه ان هذا الضابط الالماني يكبر ويكبر باستمرار ، واخذ يطلق النار على هذا الجسم الذي يتعاظم ، وشاهد عبر الدخان الذي كان يتصاعد من حطام السيارة انقاضاً سوداء في منتصف الشارع .

انطلق مسرعاً الى وراء القصر ، ثم دخل في شوارع صغيرة كان الناس يتراكضون فيها هاربين ، فانضم اليهم وهو ما يزال ممتطياً دراجته . وكانت المتاجر تغلق ، والابواب ترتج ، والناس المتراكضون بيض الوجوه . فطفق يسأل عما حدث ، وكان الناس يجيبونه :

– الكلب الاسود ! الكلب الاسود !

فيسأل : الكلب الاسود ؟

ويجيبون : الكلب الاسود ... انه قادم الى هنا .

وكان ثمة جماعة من الناس محتشدة امام حانوت بائع الحليب ، وقد همّ البائع باغلاق حانوته ، لكن النساء كن يطالبن بقسطهن من الحليب فيصرخ هو :

– ولكن الكلب الاسود قادم الى هنا !

ويلعن "هن هذا الكلب الاسود .

سأل بن رقم ٢ : ولكن ماذا حدث ؟

ثم شهد المرأة التي يبحث عنها ، وهي المرأة التي كان قد التقاها امام بائع الصحف . وكانت واقفة بين حانوت بائع الحليب وحانوت مزين قريب منه ، خلف الناس المتراكضين ، فاجابته على سؤاله وهي تبتسم :

– يبدو انهم قد نسفوا القيادة الالمانية .

وفتحت حقيبتها ، في غمرة الناس ، واخرجت منها منديلاً واخذت تمخط .

سأل بن رقم ٢ : هل هنالك قتلى كثيرون ؟

نظرت المرأة في حقيبتها فشاهدت المسدس قد اعيد اليها ، واجابت:

– يبدو ان هناك عشرين او ثلاثين قتيلاً .

واصطدم بها غلام كان يسرع الخطي وهو يصيح :

– لقد قتلوا جنرالا .

فاغلقت المرأة حقيبتها وامسكت بذراع الغلام وسألته :

– ماذا صنعوا ؟

فاجاب : لقد قتلوا رئيس المحكمة . كرا ، كرا ... لقد قتلوه !

وكان الغلام شاحب الوجه الا انه بادي البهجة ، فتركته المرأة يتابع طريقه ، ونظرت الى بن رقم ٢ الذي اشعل لفافة واجتاز الشارع على دراجته . ولما بلغت الرصيف الآخر ، ادركها بن رقم ٢ وقال لها:

– هجوم ، يا لورينا .

فقالت لورينا : هجوم !

ابتعد عنها وانطلق وحيداً في المدينة القفراء...

وتراءت له الدور بأبوابها المغلقة، ونوافذها المغلقة، وحوانيتها المغلقة، كأنها اشباح وهيا كل دور في مفازة قفراء.

كانت شمس القفر تسطع على المدينة التي يلفها الشتاء.

وكان هذا الشتاء اجمل شتاء عرفته ايطاليا منذ سنة ١٩٠٨. أما ذلك القفر فلم يكن له شبيه في الدنيا بامرها.

لم يكن شبيهاً بقفر افريقيا أو بقفر اوستراليا، ولم يكن مؤلفاً من رمل ولا من تراب. ولكنه كان مع ذلك قفراً رهيباً، كذلك القفر الذي يسود حتى غرفة مأهولة.

لقد شاهد ين رقم ٢ ذلك القفر، واجتازه مفكراً في برت التي لم تكن حينذاك في ميلانو.

وسار حتى آخر ساحة ساميون، حيث كان ملجأه، ودخل غرفته، وهو ما يزال يسمع عواء الكلب الاسود يتردد في ذلك القفر الخراب.

الام

للكاتب الصيني يو شيه

كان زوجها يتاجر بالجلود ، فيشتري جلود الحيوانات المتوحشة من الصيادين في المناطق النائية ويبيعها في المدن . ويشتغل احياناً في الزراعة ، فيساعد المزارعين في بعض المواسم بشتل الغراس . و كان الى هذا وذاك ، ماهراً في شق الاخاديد المستقيمة في الحقول ، فكان المزارعون ، حين يحرثون حقول الارز ، يضعونه في مقدمة الحارثين ليترسموا خطاه . ومع هذا كله ، كانت الظروف تعاكسه ، وديونه تتعاظم سنة بعد اخرى . ولا ريب في ان بؤسه هو الذي دفعه الى التدخين وادمان الخمر ومعاطاة الميسر ، حتى اصبح شرس الاخلاق سريع الغضب ، وحتى افتقر بحيث بات الناس يترددون في اقراضه المبلغ الزهيد من المال . ثم ركبه المرض فامتقع لونه وذوت نضارته واصبح وجهه اصفر شبيهاً بطبل صغير من نحاس ، حتى ان عينيه قد تغير لونها وانطفأ بريقها . فكان الناس يقولون انه مصاب باليرقان ، وكان الاطفال يسمونه «البطل الاصفر» .

وذات يوم قال لها :

— لم يبق في وسعي ان اصنع شيئاً ، اذا استمرت الحالة على هذا الغرار ، فينبغي لنا ان نبيع القدر . واعتقد انه خير لنا ان تتغذينا بجسدك . فماذا اصنع من اجلك اذا بقيت هنا تعانين معي عضة الجوع ؟

كانت المرأة جالسة الى جانب المدفأة المصنوعة من الفخار ، وهي ترضع ابنها الذي أشرف على السنة الثالثة من عمره ، فقالت بصوت أصم متقطع :

– بجسدي ؟

فأجاب الزوج بصوت اوهنه المرض :

– اجل ، بجسدك . لقد أجرتك .

فتساءلت ، وقد بدا كأنها توشك على الاغماء :

– ماذا تقول ؟

ومرت هنيهة ساد الصمت فيها ، ثم قال لاهثاً :

– منذ ثلاثة أيام كان لوب فانغ جالساً هنا ، وقد ظل ساعات طويلة يطالب بماله . ولما خرج غادرت المنزل وقد شعرت بأنني لم أبق أطيق الحياة . فلما وصلت الى بحيرة الفدانات التسعة ، جلست على جذع شجرة هناك . لم يكن أمامي الا أن انسلق تلك الشجرة والقي بنفسي في الماء . وقد كنت افكر بذلك حقاً ، لكن شجاعتي خانتني . وكانت ثمة بومة تنعب طول الوقت في اذني ، فشعرت بالبرد يتسلل الى قلبي ، وغادرت المكان . وفيما أنا في الطريق التقيت المرأة صون ، فسألتني عما اصنع هناك في تلك الساعة المتأخرة ، فحدثتها بأمري ، وسألتها ان تقرضني شيئاً من المال ، أو تعيرني حلية أرهنها ، كي لا أرى بعد الان عيني الذئب ، عيني فانغ الخضراوين ، تلمعان كل يوم في بيتي . لكن المرأة صون بدأت تضحك ، وقالت لي : « ولكن لماذا تصر على ابقاء امرأة في بيتك ، وأنت اصفر الوجه الى هذا الحد ؟ » فنكست رأسي دون ان اجيب ، واستطردت هي

تقول : « لا ريب في انك لا تستطيع الانفصال عن ابنك ، اذ ليس لديك غيره ، ولكن المرأة ... » فقلت في نفسي : « لا أحسب انها ستنصحني ببيع زوجي.» وتابعت هي قولها : « ولكن المرأة... ما شأنك بها... حتى لو كانت امرأتك الخاصة... انك فقير ، وانت لا تستطيع تغيير هذا الوضع... فما فائدة ابقائها في بيتك ؟ » ثم صرحت بما يجول في خاطرها قائلة: « اعرف هسيوتساي بلغ الخمسين من عمره ولما يرزق ولداً . وهو يفكر بشراء امرأة ثانية ، لكن زوجته الاولى تمنعه من ذلك . الا أنها سمحت له باستئجار امرأة لثلاثة أعوام او خمسة . وقد طلب مني ان ابحث عن امرأة في حدود الثلاثين من عمرها ، ام ولدين أو ثلاثة ، خليقة بأن تعجبه ، وان تكون امرأة شريفة ، هادئة ، تحب العمل ، وتخضع لزوجته الاولى . ومنذ ايام حدثتني زوجة الهسيوتساي نفسها بهذا الامر ، وقالت انهما اذا حصلا على امرأة تتوافر فيها تلك الصفات ، يدفعان مقابلها ثمانين دولاراً ، بل مائة . وأنا ما ازال ابحث عن امرأة تروقهما ، ولم اوفق في العثور على بغيتي حتى الان . » ثم قالت انها ما كادت تراني حتى فكرت بكِ ، فانت المرأة التي تصلح لهذا الغرض . وسألتني بعد ذلك عن رأيي ، فبكيت قليلاً ، ثم تركت نفسي تقتنع بصواب ما تقول .

وكان رأسه قد سقط على صدره ، واستحال صوته الى تمتمة لم تلبث ان انقطعت فجأة .

لم تقل المرأة شيئاً . وكانت تبدو عليها الدهشة الفائقة . أما هو

١ هسيوتساي بالصينية لقب أدبي يعادل بكالوريوس في الفنون .

فقد استطرد بعد قليل :

– امس ذهبت المرأة صون الى منزل المسيوتساي ، وحدثتني بأنه ابدى اهتماماً بك ، وان زوجته موافقة ايضاً . ان الاجرة مائة دولار . اما المدة فهي ثلاث سنوات اذا انجبت ولداً خلال هذه المدة ، والا فانها تصبح خمس سنوات . وقد عينت المرأة صون اليوم الثامن عشر من الشهر موعداً لانتقالك الى هناك ، أي بعد خمسة ايام ، وسترسل اليوم عقد الايجار .

ارتعدت المرأة وقالت بجهد :

– لماذا لم تقل لي ذلك من قبل ؟

– طفت امس حولك ثلاث مرات كي اخبرك ، ولم استطع. اقول لك بصراحة : اذا لم تكوني لنا هذا المورد الاخير ، فانه لم يبق في وسعنا ان نصنع شيئاً آخر .

فقالت وشفتاها ترتجفان :

– هل اتخذت قرارك ؟

– اني انتظر العقد لتوقيعه .

– اوه ، يا للعار ! أصحيح انه لم يبق من وسيلة اخرى ، يا والد ابني كنز الربيع ؟

– عار ! أجل ، لقد فكرت أنا ايضاً بهذا . الا أننا فقراء ويجب ان نعيش . ماذا نستطيع ان نصنع غير هذا ؟ أخشى ان لا تساعدني صحتي هذا العام على العمل في حقول الارز .

– هل فكرت بكنز الربيع ؟ انه لم يبلغ بعد الثانية من عمره . ماذا يحل به اذا فقد امه ؟

– استطيع ان اعتني به ، اذا كان ما يزال بحاجة الى عناية ...

وكان الاسى يتسلل الى نفسه شيئاً فشيئاً ، ثم ما لبث ان غادر الغرفة بخطوات واسعة ، تهزه شهقات منقطعة...

عاودت ذهن المرأة ذكرى منسية . كان ذلك منذ عام تقريباً ، وقد وضعت طفلة وتمددت في فراشها كالميتة . لكن الميت يموت كله ، أما هي فكانت تشعر كأن جسمها محطم تحطيماً . وكانت وليدتها تصرخ « آ ، آ » على كومة من القش ، فوق ارض الغرفة الخشبية ، وهي تحرك يديها ورجليها باستمرار ، وخيط السرة يلف جسدها . فبذلت جهداً كبيراً كي تنهض وتغسل الطفلة ، لكنها لم تستطع ان ترفع عن الفراش سوى رأسها وحده . أما جسدها فبقي اشبه بجثة لا حراك فيها . وحينئذ شاهدت هذا الوحش ، زوجها ، يدخل الغرفة ، بوجهه الاحمر الملتهب ، وهو يحمل سطلاً من الماء الغالي ، ويضعه بجانب الصغيرة . فقامت بجهد أخير لكي تصرخ به : « انتظر !.. انتظر !..» ولكن الوحش لم ينتظر لحظة ، ولم يقبل نقاشاً ، ولم ينبس بأي جواب . وكما يقبض الجزار على حمل وديع ليذبحه ، قبض هو بيديه الخشنتين على هذه الحياة التي ولدت حديثاً ، على الطفلة الصغيرة التي كانت تصرخ « آ ، آ » ، وتركها تسقط في الماء . انها لم تسمع صوت اندفاق الماء الغالي وصفيره ، ولم يصدر اي صوت عن الطفلة . وهي تتساءل الآن بدهشة : لماذا لم تصرخ الطفلة ؟ أكانت سعيدة بان تعاني في صمت هذه الميتة الظالمة ؟ ولكنها لم تلبث ان ادركت لماذا لم تسمع صوتاً ! لقد فقدت وعيها.

لقد اغمي عليها كما لو ان احداً قد انتزع قلبها من صدرها .

كلما كانت تستعيد هذه الذكرى ، كان يخيل اليها ان دمعها قد نفد ، لكثرة ما تبكي وتنتحب . اما الآن فقد تنهدت ببطء وتمتمت :

– أواه ما اقسى القدر !

فترك كنز الربيع ثديها ، ورفع عينيه نحوها قائلاً :

– اماه ! اماه !

جلست ليلة رحيلها في اكثر زوايا البيت عتمة . وكان ثمة مصباح زيتي يلمع امام المدخنة كزجاجة مضيئة ، وهي تضم كنز الربيع بين ذراعيها وتسحب خدها على شعره . اما افكارها فكانت تطوف بعيداً ، في آفاق، لا تعرفها ولا تستطيع ان تسميها ، ثم تعود ببطء الى اللحظة الحاضرة ، الى ابنها ، فتناديه :

– كنز الربيع ! يا عزيزي !

فيجيب وهو يمسك بثديها :

– اماه !

– ان أمك ستذهب غداً ...

فلا يفهم الولد ما تعني ، ويلتزم الصمت ، لكنه يدفن رأسه في صدرها بحركة غريزية ، فتستطرد وهي تمسح دموعها :

– ان ماما لن تعود . انها لن تستطيع العودة خلال ثلاث سنوات . فيقول وهو يبتعد عن ثديها :

– الى اين ستذهب الماما ؟ الى المعبد ؟

– كلا ، انها ستذهب الى مسيرة عشرة اميال من هنا ، ستذهب عند اسرة تدعي لي .

– سأذهب انا ايضاً !

– عزيزي لا يستطيع الذهاب وحده .

فيتململ الطفل ويعود الى ينبوع الابن الصغير ، وتتابع هي كلامها:

– ستبقى في المنزل مع بابا . بابا سيسهر على عزيزي . سينام مع عزيزي ويقوده ليلعب خارج البيت . ستصنع ما يقوله لك بابا . هذا كل شيء . وبعد ثلاث سنوات ...

فيقاطعها الطفل قائلاً والدموع تسيل في صوته :

– بابا سيضربني !

– بابا لن يضربك ...

قالت ذلك وهي تداعب خده الايمن الذي ما يزال يحمل أثر ضربة وجهها اليه ابوه ، بقبضة معوله ، بعد ان قتل اخته بثلاثة أيام.

وكان يبدو أنها ما تزال تود أن تتحدث الى ابنها وان تطيل اليه الحديث ، لما دخل زوجها بخطى محترسة اشبه بخطوات الذئب .

اقبل الزوج نحوها ، وقال وهو يبحث في جيبه :

– لقد تسلمت سبعين دولاراً ، وسأتسلم الثلاثين الباقية بعد وصولك الى هنالك بعشرة ايام .

وساد الصمت قليلاً ، ثم قال :

– لقد وافقوا على ارسال محمل لنقلك ..

وساد الصمت مرة اخرى ، ثم استطرد :

– وسيأتي الحمالون في الصباح !

وغادر البيت من جديد .
ولم يذوقا في ذلك المساء طعام العشاء .

في صباح اليوم التالي كانت سماء الربيع تمطر مطراً رذاذاً لما وصل المحمل لنقل المرأة . لم تكن هي قد رقدت تلك الليلة لحظة واحدة . فقد عكفت اولا على ترقيع ثياب كنز الربيع الخلقة . ولقد كان الصيف على الابواب ، لكنهـــا أصلحت له حتى المعطف الممزق الذي يرتديه في الشتاء . ولما فرغت من عملهـــا ، جمعت الثيـاب كلها ووضعتها على مقربة من الفراش الذي يرقد عليـه الاب . ثم جلست الى جانبه تحـاول ان تتحدث اليه ، سوى ان تلك الليلة الطويلة قـــد جرّت نفسهـا ببطء ثقيل ، ولم تستطع هي أن تقول خلالها كلمة واحدة . وقد استجمعت شجاعتها مرة أو مرتين كي تناديه ، الا انها لم تستطع ان تقول شيئاً ذكياً ، ولم ترفع صوتها بالقدر الذي يمكن ان يوقظه . ثم استلقت الى جانبه في صمت .

ولما أوشك ذهنها أن يضيع في غيابة الوعي الباطن ، استيقظ كنز الربيع ، فاستيقظت معه والبسته ثيابه ، وقالت له :

– يجب ان يكون عزيزي عاقلاً في أثناء غيابي ، وان لا يبكي ، كي لا يضربه ابوه . وستشتري ماما كثيراً من الحلوى لعزيزي . يجب ان لا يبكي عزيزي .

فلم تبد على الطفل سيماء الحزن ، بل فتح فاه وبدأ يغني . فقالت وهي تقبله في زاوية فمه :

– لا تغن لئلا توقظ اباك .

وكان حملة المحمل قد جلسوا على مقعد قريب من البـــاب ، وراحوا يدخنون في غلايين طويلة ، ويتنادرون .

وبعد قليل قدمت المرأة صون من القرية المجاورة . وكانت صون عجوزاً تسعى في شؤون الزواج والتوسط بين المحبين ، وهي غنية بتجاربها في هذا المضمار . فلما دخلت البيت نفضت عن معطفها قطرات المطر وهي تقول :

– السماء تمطر ! السماء تمطر ! هذا بشير الخصب لبيتك !

وجالت في انحاء الغرفة بطريقتها كامرأة عملية ! وألقت الى الاب ببضع كلمات مفادها انهـا تنتظر نصيبها من الصفقة ، اذ بفضلها هي كان عقد الايجار سخياً الى هذا الحد . وختمت حديثها قائلة :

– واقول لك بصراحة ، يا ابا كنز الربيع ، ان الشيخ لو بذل خمسين دولاراً اخرى لاستطاع الحصول على حظية .

ثم ألحت عـلى المرأة بالاستعجال ، لانها كانت ما تزال جالسة دون حراك وابنها على ذراعيها . وصاحت بها بصوتها النافذ :

– ان الحمالين يريدون العودة الى بيوتهم لتناول طعام الغداء فيها ، فيجب ان تسرعي بالذهاب .

فنظرت اليها المرأة في صمت وكأن نظرتها تقول : « ولكني لا اريد الذهاب ! دعيني اموت هنا جوعاً ! »

وفهمت وسيطة عقود الزواج مـــا يطوف على شفتي المرأة ، فدلفت نحوها قائلة ، وعلى ثغرها ابتسامة مشجعة :

– حقاً انك مخلوق بسيط . ماذا يستطيع « البطن الاصفر » ان

يعطيك بعد الآن ؟ اما هناك فانك ستجدين نفسك في اسرة غارقة في النعيم ، تملك مائتي فدان ، وكثيراً من المال ، ومنزلاً كبيراً ، وماشية ومستخدمين . والمرأة ، لعمري ، غاية في الطيبة والتهذيب ، ولن تلتقيك مرة دون ان تغدق عليك منحها من المؤن والوان الغذاء . واما الشيخ — على انه ليس عجوزاً الى هذا الحد — فانه ابيض الوجه وليس ملتحياً ، وقد اكسبته الراحة التفافاً انيقاً في الكتفين . لكني لا اعتقد ان ثمة حاجة لان اقول لك هذا كله . فيكفي ان تنزلي من محملك ، حتى تتأكدي من انني لا اختلق في مهنتي الاكاذيب .

فمسحت المرأة دمعها ، وقالت بوداعة :

— كنز الربيع !.. كيف استطيع ان اتركه ؟

فأجابتها العجوز وهي تربت على ظهرها :

— لا يؤلمنك امره ، فقد بلغ الثالثة . وقد قال القدماء : « في الثالثة او الرابعة يغادر الطفل امه . » فهو يوشك اذن على ان يهجرك . وانت اذا بذلت جهدك لوضع ولد او ولدين في اثناء وجودك هناك ، فان كل شيء يجري على احسن ما يرام .

وكان الحمالون قد بدأوا يستحثون المرأة قائلين : « انها ليست عروساً ، فما بالها تبكي هكذا ! »

فأخذت العجوز ولدها منها قائلة :

— سآخذه معي .

فطفق الولد يصرخ ويتخبط بين ذراعي المرأة العجوز ، حتى خرجت به من الباب الخلفي . ولما اخذت الام مكانها في المحمل ،

هتفت :

– أعيدوه الى البيت فان السماء تمطر !

اما الزوج فكان جالساً على العتبة ، وقد اعتمد رأسه باحدى يديه ، ولبث كذلك دون ان ينبس بكلمة او يبدي حركة .

كانت المسافة بين القريتين عشرة أميال ، ولكن الحمالين لم يتوقفوا في الطريق سوى مرة واحدة . وفي المرة الثانية التي توقفوا فيها كانوا قد وصلوا بها الى المنزل . وكان مطر الربيع المتساقط باستمرار، قد بلل ثيابها من خلال الستائر ، فغادرت المحمل بخطى متثاقلة . واستقبلتها على الباب سيدة في حدود الرابعة والخمسين او الخامسة والخمسين من عمرها ، ذات وجه ممتلىء وعينين ماكرتين . فقالت في نفسها : « هذه هي المرأة »، ونظرت اليها في صمت تفعمه الحيرة . وقادتها المرأة برفق نحو درج المدخل حيث كان في انتظارها رجل ممتلىء الجسم ذو وجه مستدير . فتطلع الرجل اليها باهتمام ، ثم ارتسمت على شفتيه ابتسامة عريضة وقال :

– لقد وصلت باكراً ، هل تبللت ثيابك ؟

فلم تعر المرأة المسنة كلامه انتباهاً ، وسألتها هي :

– هل معك شيء في المحمل ؟

فأجابت : كلا ، ليس معي شيء .

وتألبت امام البيت بضع نساء تقاطرن من المنازل المجاورة ، ورحن ينظرن اليها بفضول ، بينما كانت تدخل المنزل .

سألت نفسها ، بعد ان استقرت في مقعدها بالمنزل ، لماذا لا تستطيع

ان تكف من التفكير في بيتها القديم وان تنسى كنز الربيع ! لقد كان واضحاً انه ينبغي لها ان تبتهج لان السنوات الثلاث التي ستقضيها في هذا المنزل قد ابتدأت . فالمنزل الجديد والزوج الذي أجرت له ، كانا يفضلان بيتها وزوجها القديمين . ولا ريب في ان الهسيوتساي رجل طيب ووديع ، بل ان المرأة نفسها كان يبدو انها لطيفة رغم موجة الكلام المتدفقة من شفتيها دون انقطاع . لقد روت لها هذه المرأة بسرعة تاريخ حياتها الزوجية ، منذ ايام الزواج السعيدة الى الايام الحاضرة ، اي خلال مرحلة دامت ثلاثين عاماً . ومما قالته انها كانت قد وضعت منذ خمسة عشر عامـــاً او ستة عشر مولوداً ذكراً ، جميلاً وذكياً كما زعمت ، ولكنه توفي بالجدري وهو في الشهر العاشر من عمره . ولما لم ترزق بعده ولداً ، اثرت ان يتخذ زوجها امرأة ثانية ، لكنه رفض ذلك لانه يحبها !

كانت المرأة الشابة ، في اثناء اصغائها الى حديث العجوز ، تشعر تارة بتجدد قواها وبالنشاط يدب في جسدها ، وتحس تارة اخرى الانحطاط والحزن الثقيل . ثم بدأت المرأة المسنة تتحدث عن آمالها بالمستقبل ، فتململت هي ، واحمر خداها لما سمعتها تقول :

– لقد اتيح لك ان تضعي عدة اطفال ، فأنت على علم بكل ما تبغي معرفته في هذا الشأن . وانا واثقة من انك اكثر معرفة مني واوفر تجربة !

ثم تركتها وغادرت الغرفة .

وفي المساء حدثها الهسيوتساي ، بدوره ، حديثاً طويلاً عن احواله العائلية ، مفتخراً ، ومحاولاً كسب اعجابها . كانت جالسة على مقربة

من سرير انيق لم تشهد مثله في بيتها ، ولا هجس في ذهنها يوماً انها ستشهد مثله في حياتها . وفيما هي تطيل النظر الى هذا السرير ، دخل هو وجلس امامها ثم سألها :

ــ ما اسمك ؟

فلم تجب ، ولم تبتسم ، ولكنها لما نهضت اتجهت نحو السرير ، فتبعها وقال لها ضاحكاً :

ــ أتكونين حيية الى هذا الحد؟ آه ، انك تفكرين بزوجك ، أليس كذلك ؟ ان زوجك الآن هو انا ...

وكان صوته وديعاً ... وقد مد يده فلمس ذراعها وهو يتابع حديثه :

ــ لا ينبغي لك هـذا . اعتقد بأنك تفكرين بابنك ايضاً . ولكن ...

ولم يكمل ما كان يريد ان يقول ، بـل دنا منها ضاحكاً وشرع ينضو عنها ثوبها .

اما هي فكانت تصغي الى صوت زوجته التي كانت توبخ شخصاً في ساحة الدار . ولم تستطع ان تعرف من هو هذا الذي توبخه . فلعله الطباخة ، او لعلها توبخها هي ، بل لا بد من ان تكون هي السبب الدافع الى هذا الشجار !

الا ان الهيبوتساي قطع عليها تفكيرها ، اذ ناداها من السرير :

ــ تعالي الى هنا . انها تزجر دائماً . انها تحب البستاني كثيراً ، وهي توبخ « فان » الطباخة دائماً لان البستاني يحبها !

مرت الأيام واحداً بعد آخر ، وبدأت ذكرى بيتهـا القديم تبتعد مع الزمن ، وأصبحت تألف شيئاً فشيئاً جوها الجديد . كان يخيل اليها في بعض الأحيان انها تسمع كنز الربيع يبكي ، وقد حلمت به غير مرة ، ولكن الغموض كان يشيع في أحلامها اكثر فاكثر ، بينما تتضح واجباتها المنزلية الراهنة يوماً بعد يوم ، وتغدو أشد الحاحاً من قبل . ولقد تبين لها ان السيدة المسنة كانت كثيرة الشكوك ، فهي تتظاهر بالكرم والسماحة . بيد ان غيرتها كانت تجعل منها جاسوسة تراقب كل حركة تبدر من زوجها نحو المرأة الجديدة . فاذا ابتدر المسيوتساي هذه بالكلام عند عودته الى المنزل ، قبل ان يتجه به اليها ، أسرع الى ظنها انه يحمل اليها هدية ، وعملت تلك الليلة على احضاره الى غرفتها ، ثم تصاعد من هذه الغرفة عتاب أقل ما يسمع منه قولها له : « ان هذه الماكرة قد سحرتك ، كأنك لا تعرف كم تزن عظامك المسنة ! » وكان اذا اتفق للمرأة الشابة ان كانت وحيدة في حجرتها ، عند عودة المسيوتساي الى المنزل ، بادرت الى مغادرتها حالاً ، لئلا يوافيها الى هناك فينفر بها ، اذ كان من العسير عليه ان يستطيع البقاء بعيداً عنها ، حتى في حضور السيدة نفسها ، رغم انها كانت تحرص على الظهور بمظهرها الطبيعي الذي لا تجمله اية زينة مصطنعة ، ولا تألو جهداً في انكار نفسها والتواري عن الأنظار ما استطاعت الى ذلك سبيلاً ، وان كانت المرأة المسنة لا تفتأ تتهمها بالغرور والكبرياء، حتى امام الجيران والغرباء .

وقد وقعت شؤون البيت ، مع الزمن ، على عاتقها وحدها ،

كما لو كانت خادماً ، فكانت تتحمل هـــذا العبء بصبرها وحكمتها ، وتغسل ثياب السيدة المسنة نفسها . وقد قالت لهـــا هذه يوماً :

– ليس ثمة حاجة لأن تغسلي ثيابي ، حتى ولا ثيابك أنت ، ففي وسعك أن تعهدي بغسلها الى فان ...

الا انها بعد ان قالت لها هذا ، لم تلبث ان استطردت :

– اذهبي الى الاسطبل يا فتاتي ، والقي عليـه نظرة ، فاني لا استطيع أن أفهم لماذا يقوم هذان الخنزيران بكل هذه الضجة . لا ريب في انهما جائعان ، لأن فان لا تعنى بهما البتة .

وبعد شهور ثمانية من حياتها الجديدة ، تبدلت شهوتها للطعام . فلم تبق بها رغبة في تناول الأرز ، واكتفت بأكل العجة والبطاطا . ثم عافت نفسها هذين اللونين ايضاً ، وتاقت الى الخوخ والدراقن ، ولكن كيف يمكن الحصول علي الاثمار في فصل الشتاء وهي لن تنضج الا بعد ستة أشهر !

ابتهج الهسيوتساي بالبشرى التي حملتها اليه هذه الامارات ، وطفق يشتري لها كل ما يستطيع الحصول عليه . وكان كثيراً ما يجول في شرفة منزله متمتماً كلمات لا يسمعها أحد غيره . وقـد رآها ذات يوم وهي تساعد فان في طحن القمح لصنع الحـلويات التي يسمونها « حلوى نيويورك » فناداها وقال لها :

– يجب ان تستريحي . فان في وسع الخادمة أن تطحن الباقي . انهم سيأكلون جميعاً من الحلوى ، فلماذا تتكبدين مشقة صنعهـا بمفردك ؟

وفي بعض العشيات ، لما كان الآخرون يغرقون في ثرثرتهم ، كان يحمل مصباحاً ويجلس على انفراد ليقرأ في « كتاب الاناشيد ». وكانت الخادمة تسأله :

– لماذا تقرأ يا سيدي هذه الاشياء ، وقد تخطيت عهد الدراسة ، ولم يبق من واجباتك ان تقدم فحوصاً ؟

فيداعب خديه الاجردين ويقرأ بغبطة :

« شموع مزهرة لليلة العرس ، وثبت ذهبي بأسماء الخطباء » .

ثم يقول : أتفهمين مـــا تعني هاتان الجملتان ؟ انهما أسعد الاحداث في حياة الانسان . وقد أصبحا الآن ، كلاهما ، من شؤون الماضي البعيد بالنسبة الي . لكني أشعر مـع ذلك بفرح اكبر منهما معاً .

فيضحك جميع الحاضرين الا زوجتيه .

وكانت هذه الامور تنغص السيدة المسنة . لقد كانت في البدء مبتهجة بحبـــل المرأة الشابة ، لكنها لما شاهدت كيف يسعى المسيونساي لتأمين كل ما تطلبه ، شعرت بالغيظ لان بطنها هي ليس قادراً على تأدية واجبه .

ومرضت المرأة الشابة مرةً ، في الشهر الثالث من السنة الثانية ، مرضاً خفيفاً . فحرص المسيونساي عـلى ان تلزم فراشها انتجاعاً للراحة . ولم يكتف بهذا ، بل دأب على سؤالها في كل مناسبة عما تريده أو تحتاج اليه . فساور المرأة المسنة غضب عنيف ، واتهمت المرأة الشابة بانها تتظاهر بالمرض ، وراحت تتحدث عنهـا بهزوء :

« ان هذه المرأة قدرت نفسها ، منذ قدومها ، باكثر مما تستحق .

وهي لا تفتأ تتغنج وتتدلل كأنها حظية من الدرجة الاولى !»
وكانت واثقة من ان هذه المرأة لم تكن مدللة في بيتها على هذا الفراو ، وأنها كانت تضطر للبحث عن طعامها ، وأولادها في بطنها ، ككلاب الشارع . أما الآن ، فهي تدعي الرقة لان هـذا الكهل الخبيث ، كما كانت تسمي زوجها ، يدللها اكثر مما ينبغي لها .

وقالت يوماً للخادمة فان :

ــ ولد ! لقد وضعنا كلنا أولاداً . لقد حملت ابني عشرة أشهر ، ولا اعتقد بأن انساناً قد يتألم بمقدار ما تألمت . ومهما يكن ، فان ابنها لا يزال في سجل العـالم الآخر . ومن الذي يستطيع ان يضمن كون المخلوق الذي ستضعه ليس ضفدعـة سامة شنعاء . لتتدلل أمامي عنـدما يخرج ذلك الحيوان الصغير الى النور . اما الآن ، فانها لتسرع في التكبر والتزيد وهو ما يزال قطعة من لحم .

لم تتناول المرأة الشابة طعامها ذلك المساء على المائدة ، بـل ظلت في سريرها تسمع امثال هذه الاحاديث الجارحة وتنتحب في صمت . وكان المسيوتساي خالعاً بعض ثيابه وجالساً على حافـة السرير لما سمع شتائم زوجته ، فنضح جسده بعرق بارد ، وبـدرت منه حركات توحي بأنه سينهض ، فيرتدي ثيابه ، وينقض عـلى العجوز ، فينتزع شعرها ، ويضربها ضرباً مبرحاً . ولكن قواه خانته فطفقت اصابعه ترتجف ، وارتخى ذراعاه ، وتمتم متنهداً :

ــ واأسفاه ! لقد عاملتها خير معاملة خلال الثلاثين السنة التي انقضت من حياتنا ، فلم اضربها قط ، لم المسها باصبعي . وها هي الآن تصبح فظة ، شرسة الخلق ، اشبه بأرملة !

ثم انحنى على المرأة الشابة وهمس في اذنيها :

ـ لا تبكي ! لا تبكي ! دعيها تنبح . انمــا هي دجاجة عقيم لا تستطيع ان ترى دجاجة غيرها تحضن بيضها . اذا اعطيتني صبياً حقاً ، فسأعطيك حليتين ثمينتين . عندي خـاتم من الزمرد الاخضر ، وآخر من الزمرد الابيض ...

وقاطعه صوت زوجته التي كانت ما تزال ترسل شتائمها ، فألقى ثيابه الى الارض وغطى رأسه باللحاف وهو يتمتم :

ـ عندي زمرد أبيض ...

وكان بطن المرأة يتسع يوماً بعد آخر ، حتى اصبح بحجم مـد القمح ، وحتى اضطرت العجوز ان تحضر القـابلة . ثم انتظرت سانحة اجتمع فيها بغرفتها رهط من النساء ، فأخرجت من صناديقها لحافاً زاهياً وثياباً بيضاء للطفل .

كانت حرارة الصيف الثقيلة قد انجابت ، والاسرة تقضي القمر السادس في انتظار الخريف ، والنسمات الندية قـد بدأت تداعب القرية . وفي ذات يوم ، بلغت الآمال أوجها ، فساد القلق جو المنزل ، واصبح المسيوتساي في حالة شديدة من التوتر . كان يذرع ساحة الدار جيئة وذهاباً ، وهو يمسك بتقويم فلكي ، كأنه يستظهر بعض ما فيه ، متمتماً بين حين وآخر : « ان تأثير النمر يتغلب » ، شاخصاً بعينيه احياناً الى نافذة الغرفـة المغلقة حيث يعلو صوت القابلة ، متطلعاً في احيان اخرى الى الشمس المغطاة بالغيوم . وكلما مرت به الخادمة فان يسألها متلهفاً عمـا حدث ، فتخفض رأسها ثم هنيهة تجيب:

ـ لن يطول الامر ! لن يطول الامر !

فيعود الى تقويه ، والى ذرع الغرفة بخطواته السريعة القلقة .

واستمرت الحال هكذا ، حتى صعدت من الارض ضبابة الغسق ، وأضاءت المصابيح هنا وهناك أشبه بزهور الربيع . حينئذ ولد الطفل ، وكان غلاماً ذكراً ، وقد ارتفع صوته من الغرفة المقفلة .

جلس المسيوتساي في احدى الزوايا وهو يوشك على البكاء لشدة فرحه . ولم يكن قد تناول الطعام احد في المنزل . فلما فرغوا من عملهم ، احتشدوا حول المائدة لتناول الحساء . قالت المرأة العجوز للخدم :

ـ لا تذيعوا الخبر قبل بضعة ايام ، كي نجنب الطفل ما ينتج عن أقوال الناس من شرور ، واذا سئلتم فقولوا ان المولود انثى .

بعد شهر واحد ، بدا وجه الطفل الابيض الرقيق لشمس الخريف . فتقاطرت النساء من البيوت المجاورة لرؤيته ، وطفقن يمدحنه : هذه تطري انفه ، وتلك تطري فمه ، واخرى تشيد بجمال اذنيه . وقد لاحظن ان صحة الام خير من قبل ، وانها قد ازدادت حسناً . ولكن السيدة المسنة ما لبثت ان اقبلت تصدر الاوامر ، معنية بكل شيء كجدة حقيقية ، قائلة لجاراتها :

ـ كفى ... كفى الآن ، لقد كدتن تثرن بكاء الطفل .

وكان الاب العالم لا يفتأ يفكر في الاسم الذي ينبغي له ان يطلقه على الوليد ، دون ان يقع على الاسم الذي يعبر عما في نفسه من شعور . وقد اقترحت السيدة المسنة ان يكون اسم

الطفل « حيـــاة طويلة » او « غنى » او « شرف » او « سعادة » أو « رخاء » او « فرح » ، وقالت انها تفضل « حياة طويلة » او ما يشابهه من الاسماء مثل « كهولة ناضجة » مثلاً ! فلم يوافق المسيوتساي على اطلاق اي من هـــذه الاسماء على ابنه ، لكنه قلب صفحات « كتاب التحولات » و « كتاب التاريخ » خـلال النصف الاول من الشهر ، ثم خلال الشهر بطوله ، دون ان يقع فيهما عـلى اسم يرضيه . فقد كان يبحث عن اسم يكون فألاً للطفل ، ويعبر من ناحية اخرى عن انه رزق هذا الطفل وقد تقدم به العمر بعض الشيء . ولم يكن ذلك بالامر اليسير .

وذات يوم ، بعد ثلاثة شهور ، بينما كان الاب جالساً في زاوية وطفله على ركبتيه ، وكتابه في يده يقلبه بتمهل باحثاً عن اسم جميل ، والام جالسة في زاوية اخرى ، وفكرها ضائـع في آفاق بعيدة ، قالت الام فجأة :

– اعتقد ان من المستحسن تسميته « كنز الخريف » !

فاتجهت اليها انظار من بالغرفة وقد تولتهم الدهشة ، واستطردت هي تقول :

– لقد ولد في الخريف ، أليس كذلك ؟ انـه منحة ثمينة من منح الخريف . فليدعَ اذن « كنز الخريف » .

فهتف المسيوتساي وقد اعجبته الفكرة أيما اعجاب :

– هذا اسم رائع حقاً . يا للجهد الضائع الذي بذلناه . أجل ، انا في خريف حياتي ، فقد اجتزت سن الخمسين . وقـد ولد الطفل ايضاً في الخريف ، فصل النضج في الطبيعة . ان « كنز الخريف »

لأسم كامل . وهو ، فضلاً عن هذا ، اسم يمكن ان نجده في « كتاب التاريخ » ، فالكتاب يقول انه سيحدث ايضاً حصاد في الخريف ، ولقد جاء حصادي انا بالحقيقة في هذا الفصل .

ثم اثنى على الام ثناء بالغاً ، قائلاً ان الدراسة وحدها لا قيمة لها ، وان الذكاء هبة الهية ، حتى ضاقت المرأة الشابة بالثناء الشديد ، فقالت بتواضع ، وقد نكست رأسها واوشكت على البكاء :

– خطر لي هذا الاسم لاني كنت افكر بكنز الربيع !

كان كنز الخريف يصبح يوماً فيوماً اكثر جمالاً وأشد تعلقاً بأمه . وكانت له عينان واسعتان ينظر بهما الى الغرباء نظرة مدققة فاحصة . اما امه فكان يعرفها حالاً وان كانت بعيدة عنه . وكان حريصاً على عناق امه طول يومه ، قليل المبالاة بأبيه والاحتفال له ، رغم الحب الشديد الذي كان المسيوتساي يمحضه اياه . اما المرأة المسنة فلم تكن لتحمل للطفل سوى عاطفة مصطنعة ، لكنها طفقت تتظاهر بانها تحبه كما لو كان ابنها هي ، وان كان الطفل لا ينظر اليها الا نظره الى امرأة غريبة .

وكلما كان تعلق الطفل بأمه يزداد ، كان يوم ابتعادها عنه يقترب . فقد أقبل الربيع في اعقاب الشتاء ، وبدأت خطوات الصيف تدنو ، واوشكت مدة ايجار المرأة على الانتهاء ...

وتحدث المسيوتساي الى زوجته بهذا الشأن ، بدافع من حبه لولده ، قائلاً انه يريد ان يدفع مائة دولار اخرى ويشتري المرأة الى الابد . فقالت الزوجة :

ـ اذا كنت تريد ان تشتريها فاعطني سماً قبل ذلك .

فساور الرجل غضب شديد ، ولبث برهة لا يتكلم ، ثم قال وهو يحاول عبثاً ان يبتسم :

ـ الا تعتقدين ان الولد اذا حرم امه ...

فقاطعته قائلة : اذن ، فانت لا تعتقد بأنني أهل لان اكون له أماً ؟

اما الام فكانت تتنازع فكرها عاطفتان متضاربتان . لقد ألفت منذ وقت طويل ذلك الصدى الذي كان يرن في اذنيها باستمرار : « ثلاث سنوات ! ثلاث سنوات ! » كانت تقول لنفسها ان هذه السنوات الثلاث لا بد من ان تنتهي ، وبهذا الامل قبلت حياة العبودية التي عاشتها في منزل المسيونساي .

ان ذكرى كنز الربيع قد ظلت حية في قلبها مسيطرة عليها ، بقدر ما كان حبها لكنز الخريف حياً ومسيطراً . واذا كانت فكرة الانفصال عن هذا الطفل الاخير مرّة على نفسها وشاقة على قلبها ، فقد كانت فكرة التخلي عن الاول الى الابد امرّ وأشق ! وكانت توغب في الوقت نفسه بأخلاص ان تقضي بقية حياتها في اسرتها الجديدة ، لانها تدرك ان ابا كنز الربيع لن يعمر طويلاً ، وان مرضه وفقره لا بد من ان يحملاه اخيراً على المهاجرة الى احدى المقاطعات المجهولة النائية ، فخير ما تنشده واقصى ما ترجوه ان تبقى في هذا البيت الجديد ، وان تسأل صاحبه تبني كنز الربيع ليكون على مقربة منها .

كان يحلو لها ان تحلم على الشرفة تحت شمس الايام الاولى من فصل الصيف ، وكثيراً ما كان يخيل اليها وهي تضم كنز الخريف

الى صدرها ، ان كنز الربيع واقف الى جانبها ، فتمد ذراعها اليه لتضمه الى جانب اخيه فتناغيهما معاً وتلاعبهما ، لكنها لا تلبث ان تحس ان الآخر بعيد عنها .

وكانت المرأة المسنة ذات الوجه الوديع والعينين القاسيتين تراقبها من خصاص الباب بأهتمام ، فاذا ثابت الام الى نفسها والى حقيقتها قالت لنفسها : « خير لي ان اذهب باسرع ما استطيع ، فانها تراقبني كجاسوس ! » الا ان الطفل لا يكاد يبكي في ذراعيها حتى تشعر من جديد بأنه هو الذي يهمها بالدرجة الاولى ، فيجب ان تبقى من اجله وان تتحمل في سبيله كل شيء .

واعتزم الاب اخيراً ان يعدّل من فكرته الاولى ، فيرسل في طلب المرأة صون ويكلفها الذهاب الى بيت الزوج الاول لأم كنز الخريف ، كي تسأله أيوافق على تمديد ايجار زوجته الى ثلاث سنوات اخريات . وقال يوماً لزوجته :

ــ عندما يبلغ كنز الخريف السنة الخامسة من عمره ، يصبح في وسعه الانفصال عن امه .

وكانت المرأة المسنة تسبح في مسبحة بوذية فقالت :

ــ ان لهذه المرأة ولداً ينتظرها في المنزل ، فينبغي لك ان تسمح لها بالعودة الى زوجها الشرعي .

وتابعت صلاتها قائلة : « مامو اميتاب ... مامو اميتاب ... »

فخفض الرجل رأسه وقال بصوت متردد :

ــ ولكن فكري بكنز الخريف اذا حرم امه ...

فأجابت المرأة المسنة وهي تضع مسبحتها بجانبها :

ـ استطيع ان اربيه انا . ان في وسعي العناية به . أم لعلك تخشى ان اقتله ؟

فنهض وغادر الغرفة بينما كانت تصرخ به :

ـ لقد اردنا هـذا الولد كي يساعدني انا ، فكنز الخريف هو لي . ان اسرتك هي التي كانت مهددة بالانقراض وليست اسرتي . ولكن تقدمك في السن يقودك الى الخرف . ولعمري ، ماذا بقي لك من الحياة ؟ أتحسب انك ستبقى ملتصقاً بهـذه المرأة الى الابد ؟ انني لا اريد ان يوضع نعشي الى جانب نعش هذه المرأة المجهولة الاصل .

وفي الصيف اصيب الطفـل بالحمى ، ونبتت له دملة في رأسه . فبذلت المرأة المسنة جهداً كبيراً في التضرع الى الآلهـــة ، وفي الحصول على ادوية بوذية كانت تفرك بها الدملة او تحشو بها معدة الطفل . اما الام فلم تجد في هذا المرض خطراً كبيراً على ابنها ، وكانت تلقي بالادوية البوذية خفية ، كلما واتتها فرصة لتصنع ذلك . فكانت السيدة العجوز تقول لزوجها :

ـ أرأيت ؟ انها لا تقلق على ابنها ولا تعنى بمعالجته ، وليس من احد يستطيع ان يقنعها بأنـه قد بدأ يضعف . ان الحب الكامن في القلب هو حب عميق ، اما الحب الذي يطفو على السطح فهو حب كاذب !

فيلتزم المسيوتساي الصمت ، وتبكي المرأة الشابة في الخفاء .

لما بلغ الطفل السنة الاولى من عمره ، أقام ابوه مأدبة لمناسبة

هذا العيد التذكاري ، دعا اليها اربعين شخصاً . وقد حمل المدعوون معهم هدايا من الجوخ ، او حلويات ، وحمل غيرهم اسوداً صغاراً من الفضة لتعلق في رقبة الطفل ، وجلب آخرون صوراً مذهبة للآله « حياة طويلة » . واقبلوا يهنئون الاب ويتمنون للطفل العظمة والخلود ، ووجه المسيوتساي يطفح بهجة كأن خديه بعكسان غروب الشمس !

وفي مساء ذلك اليوم نفسه ، بعد ان التف المدعوون حول المائدة وشرعوا يتناولون الطعام ، دخل ساحة المنزل ضيف جديد كان يسير ببطء في ضباب الليل الهابط . واتجهت انظار المدعوين نحوه ليتبينوه ، فشاهدوا رجلا زرياً قبيحاً ، طويل الشعر ، تعافه النفس ، يحمل تحت ثيابه الخلقة رزمة ملفوفة بالورق . فهرع المسيوتساي نحوه دهشاً من رؤية مثل هذا الرجل في منزله ، وسأله عما يريد ومن اين هو آتٍ . فأجاب الرجل انه يحمل هدية للطفل . ولم يساعد هذا الجواب المهذب المسيوتساي على معرفة محدثه ، لكن بارقاً لمع فجأة في مخيلته ، فقال في نفسه : لاريب انه بائع الجلود ! وسأله بصوت خفيض :

— لماذا كلفت نفسك العناء بأحضار هذه الهدية ؟ ما كان ينبغي لك ان تفعل ذلك !

فنظر اليه الرجل بأستحياء ، وغمغم :

— اريد ، كنت اريد... اتيت لأتمنى للسيدة حياة طويلة والف ...

ثم توقف عن الكلام ليحل بأصابعه المرتجفة الرزمة التي يحملها . واخرج أخيراً اربعة حروف صغيرة من النحاس المطلي بالفضة

تعني «حياة طويلة تضاهي حياة الجبال في الجنوب» .

ومرت زوجة الصيوتساي بهما فشعرت بالاشمئزاز من الرجل الغريب وابتعدت . اما صاحب البيت فقد اقتاد الضيف الجديد الى المائدة حيث كان المدعوون ينظرون اليهما متهامسين .

مرت ساعتان أكل المدعوون فيهما وشربوا حتى اخذتهم سورة الخمرة ، فبدأوا يلعبون ويتنادرون بصوت عال حتى كاد المنزل يضج من عربدتهم . وظل بائع الجلود وحده صامتاً هادئاً ، رغم انه قد شاركهم في اكلهم وشربهم ، دون ان يعيره احد منهم اهتماماً او انتباهاً . ولما بدأ تأثير الخمر يتبدد من رؤوسهم ، طفق كل واحد يأكل على استعجال صحناً من الارز ، ثم يتمم المجاملات المألوفة ويغادر الدار . وهكذا تفرقوا واحداً بعد آخر مبتعدين بمشاعلهم المضيئة في ظلمة الليل .

ظل بائع الجلود يأكل الى النهاية ، ولم يبتعد عن المائدة الا لما بدأ الخدم بنقل أواني الطعام ، فانسحب حينئذ الى زاوية معتمة على الشرفة ، كانت تنتظره فيها زوجته التي أجرها .

سألت المرأة زوجها بحزن :

ــ لماذا أتيت ؟

ــ أتحسبينني قد اتيت لاني اردت ان آتي ؟ لم يكن بوسعي ان اصنع غير هذا ...

ــ لماذا تأخرت اذن الى هذا اليوم ؟

ــ أتعتقدين انه كان من اليسير عليّ ان اجد المال اللازم لشراء هدية ؟ لقد بحثت في كل مكان ، ورجوت كل انسان ،

واستجديت طوال النهار . ثم كان عليّ ان اذهب الى المدينة لشراء المدية . فتعبت وجعت لكثرة ما مشيت . ولهذا وصلت متأخراً .

سألت المرأة متلهفة :

ـ وكنز الربيع ؟

فأرسل الرجل تنهدة كبيرة وقال :

ـ من اجل كنز الربيع اتيت .

فرددت المرأة كلامه مذعورة :

ـ من اجل كنز الربيع اتيت ؟

فقال ببطء :

ـ لقد هزل كنز الربيع طوال الصيف بشكل مخيف ، وفي الخريف وقع مريضاً . وليس لديّ طبعاً المال اللازم لاحضار الطبيب وشراء العلاج . ان صحته تزداد سوءاً ، واعتقد انه سيموت اذا لم نصنع من اجله شيئاً . وقد اتيت اطلب منك مالاً ...

خيل للمرأة ان ثمة هدرة غضبى تمزق قلبها وتنهش احشاءها . ارادت ان تبكي ، لكن كيف تستطيع الاسترسال في البكاء في مثل ذلك اليوم الذي يعرب فيه كل انسان عن امانيه من اجل كنز الخريف ! فأمسكت دمعها وقالت :

ـ وانا ايضاً ، لا مال عندي . انهم لا يعطونني هنا سوى « ماو » كل خمسة عشر يوماً لنفقاتي . ولم يكن لي قط نفقات خاصة ، فكنت انفق ما يتجمع لديّ على الطفل . فما العمل ؟

وصمتا برهة ثم سألت المرأة :

ـ من يعنى بكنز الربيع الآن ؟

ـ تركته عند جارة لنا . كنت اعتقد ان في استطاعتي العودة هذا المساء . يجب ان اعود حالاً .

وبدأ يجفف دموعه ، بينما قالت المرأة والعبرة تخنقها :

ـ انتظر قليلاً ... سأرى ان كان في وسعي الحصول منه على شيء من المال .

وابتعدت .

بعد أيام سألها المسيوتساي فجأة ذات مساء :

ـ اين خاتم الزمرد الأخضر الذي اعطيتك اياه ؟

ـ اعطيته اياه ، ذلك اليوم . أخذه ليرهنه .

فقال بغضب :

ـ ألم اعطك خمسة دولارات ؟

ـ لم تكن الخمسة دولارات لتكفي :

ـ اه ، نعم ! انك تفتكرين دائماً بزوجك الأول وولدك الأول ، رغم كل ما اصنعه من اجلك . كان بودي ان ابقيك سنتين اخريين ، ولكن الأفضل ان تذهبي في الربيع .

فكان ألم المرأة أقوى من ان يحملها على البكاء .

وبعد أيام عاد الى الموضوع نفسه :

ـ لقد كان ذلك الخاتم كنزاً ، وقد اعطيتك اياه كي تعطيه في المستقبل لكنز الخريف . لم يجس في بالي قط انك سترهنينه عند اول فرصة . ومن حسن الحظ ، ان الآخر لا يعرف عن هذا الأمر شيئاً .

بدأت المرأة الشابة تصبح ، يوماً بعـد آخر ، اكثر شحوباً واشد هزالاً ، وغدت عيناها ذابلتين ، بينما ازدادت اذناها اصغاء للشتيمة والسخرية اللتين كانت تتعرض لهما . وكانت دائمة التفكير بكنز الربيع ومرضه ، تترقب مرور صديق من قريتها ، او مسافر يستطيع ان يمر بتلك القرية لينقل اليها نبـأ عن ولدها . كانت تنتظر بالم قلق عنيف نبأ شفاء كنز الربيع ، ولكن هذا النبأ لم يأتِ رغم ان انتظارها قد طال . وقـد ارادت ان تستقرض دولاراً أو دولارين تشتري له بهما أشياء مفرحة ، ولكن لم يكن هناك من يحمل هذه الأشياء الى كنز الربيع . ولقد كانت تنفق اكثر أيامها وهي جالسة على قارعة الطريق ، وكنز الخريف بين ذراعيها ، تراقب كل من يمر من هناك ، علها تعرف واحداً منهم ، لكن جهودها ذهبت أدراج الرياح ، ولم توفق الى بغيتها .

وكان سلوك المرأة الشابة يثير السيدة العجوز ، فتقول لزوجها دون انقطاع :

ــ ألا ترى انها غير راضية عن بقائها هنا ، وانهـا لا تحلم الا بالعودة سريعاً الى منزلها القديم ؟

وكثيراً ما كانت تصرخ وهي نائمة ، وكنز الخريف راقد على صدرها ، صراخاً مفاجئاً مرعباً يوقظ الطفل ويبعثه عـلى البكاء ، فيهرع الرجل اليها ويلاحقها باسئلته الملحة :

ــ ماذا بك ؟ ماذا حدث لك ؟

ولكن المرأة لا تجيب ، بل تحنو على ابنها تداعبه وتناغيه . ويتابع هو اسئلته :

– هل حلمت بأن ابنك قد مات ؟ لقد صرخت بقوة شديدة . ان صراخك قد ايقظني .

وقد اجابته مرة :

– كلا ، كلا ، لقد خيل اليّ اني أرى امامي قبراً .

فكف عن سؤالها بعد ذلك . ولكن الرؤيا المخيفة لم تكف عن ترويعها ، حتى بدأت تتمنى لو تدفن في هذا القبر الذي لا تفتأ تلاحقها رؤياه .

أوشك الشتاء على الانتهاء ، وبدأت العصافير التي اقترب موعد رحيلها تزقزق تحت نافذتها دون انقطاع ، مذكرة اياهـــا بقرب رحيلها . ثم فطم الطفل ، وأحضر الكهنة لأعانته بصلواتهم على اجتيـاز هـذه المرحلة العصيبـة . وتقرر أخيراً الفراق ، فراق الأم عن ابنها الى الأبد .

في ذلك اليوم سألت الخادمة فان زوجة المسيوتساي :

– هل أرسلت في طلب محمل ؟

فأجابت السيدة العجوز وهي تعد حبات مسبحتها :

– فلتسر ... هل لديها مال لتدفع اجرة الحمـالين ؟ قيل لي ان ليس لدى زوجها ما يأكله ، فهي ليست اذن بحاجة الى هــذا الدلال . والمكان ليس بعيد مـع ذلك . في عهد شبابي كنت أسير من عشرة اميال الى خمسة عشر ، وان ساقيهـا لأطول من ساقيّ ... لن يستغرق سيرها سوى نصف النهار .

وفي الصباح الباكر ، انشأت الأم الشابة تلبس كنز الحريف ثيابه ، ودموعها تنهمر بغزارة ، والطفل يردد بأستمرار « خـالتي !

خالتي ! » ذلك ان العجوز كانت قد أمرت بأن يلقن الطفل دعوة امه بهذا الأسم ومناداتها هي « ماما » .

كانت الأم تجيب طفلها بالعبرات الصامتة . وقد حاولت ان تقول شيئاً . كانت تريد ان تقول مثلاً : « اننا سنفترق يا طفلي المعبود ... ان « ماما » ستعنى بشأنك ، فكن لطيفاً معها ولا تفتكر بي أبداً . » ولكن الكلمات لم تكن لتجد سبيلاً الى شفتيها ، ولم يكن الطفل ، وهو ابن سنة ونصف السنة ، ليستطيع ان يفهم ما تريد ان تقول !

دنا المسيوتساي حزيناً ، ووضع يديه تحت ذراعيها ، وكانت في يده عشر قطع من النقود كل واحدة بعشرين سنتاً ، فأعطاها اياها وقال بعذوبة :

ــ خذي هذين الدولارين .

فأبتعدت عن الطفل ، ووضعت المال في جيبها الداخلي . ودخلت السيدة المسنة في تلك البرهة ، فتبعت بانظارها المسيوتساي الذي كان ينسحب من الغرفة ، ثم قالت :

ــ أعطني كنز الحريف كي لا يبكي عندما تذهبين .

فلم تجب ، ولكن الطفل ابى الذهاب مع العجوز ، وضربها مرات متوالية على وجهها ، فقالت غاضبة :

ــ حسناً ، ابقيه قليلاً ، وتناولي طعامك معه ، ولكن اعطني اياه فور انتهائك .

ودعتها فان الى تناول الطعام قائلة لها برفق :

ــ منذ اسوعين وأنت لا تأكلين شيئاً ، وقد هزلت كثيراً .

هل رأيت وجهك في المرآة ؟ كلي على الأقل كأساً من الأرز ، فان امامك مسيرة عشرة أميال .

فاجابت المرأة بصوت هادىء :

– لقد كنت طيبة معي يا فان .

كانت السماء عالية في الأفق ، والنهار جميل رائع .

لم يشأ كنز الخريف ان يفارق امه ، ولكن العجوز انتهت بانتزاعه منها عنوة ، فطفق يضرب بطن المرأة بقدميه الصغيرتين ، ويشد شعرها بيديه ، وهو لا يفتأ يصرخ بكل قواه ، فقالت الأم :

– دعوني ابقى الى ما بعد طعام الغداء .

فانكفأت السيدة العجوز غاضبة ، وقالت :

– هيئي حوائجك بسرعة وارحلي ، فقد حان وقت ذهابك .

كان يخيل الى الأم ان صراخ الطفل يأتي من بعيد . ولما بدأت بجمع حوائجها ، سمعت صراخه يعلو مرة اخرى . فحاولت الخادمة فان ان تشجعها ، بينما كانت تراقب ما تحمل معها من متاع . واصبحت الأم اخيراً على استعداد للذهاب ، فوضعت حزمة ثيابها تحت ذراعها وخرجت .

ولما اجتازت المنزل سمعت صراخ كنز الخريف مرة اخرى ، فظلت هذه الصرخة الاخيرة تلاحقها وتدوي في اذنيها بعد مسيرة ميل كامل .

كان الطريق يمتد أمامها ، تحت الشمس الحارة ، طويلاً لا حد له كالسماء نفسها . ولما وصلت الى النهر ، خطر لها ان تستريح من

رحلتها الشاقة بالقاء نفسها في مائه الصافي كالمرآة . ولكنها ما لبثت ان تابعت سيرها أشبه بطيف شارد .

وعند الأصيل ، قال لها فلاح ممن التقته في كوخ على مقربة من الطريق ، انه ما يزال أمامها خمسة اميال حتى تبلغ قريتها . فقالت له :

— أتستطيع أن تحضر لي كرسياً يا عماه ؟ لم يبق في وسعي مواصلة المسير الى المنزل .

— هل انت مريضة ؟

— أجل !

وبعد ان جلست في الكوخ سألها الرجل :

— من اين أنت آتية ؟

فترددت قليلاً ثم أجابت :

— اني اسير نحو هذه الجهة . كان يخيل اليّ في الصباح اني استطيع اجتياز الطريق على قدمي .

فتمتم الرجل بضع كلمات ، ثم أحضر حمالين وكرسياً .

عند المساء شاهد أهل قرية بائع الجلود ، في الشارع الطويل الضيق ، كرسياً يحملانه رجلان منهوكان ، وعليه امرأة نصف حية ، ذابلة الوجه كورقة ملفوفة مصفرّة يابسة ، وعيناها مغلقتان ، ونفَسها يتردد ضعيفاً بطيئاً . فأخذ الناس ينظرون اليها بدهشة وشفقة ، بينما التف حول الحمالين رهط من الصبيان يتدافعون ويتصايحون كأن اعجوبة قد حدثت في قريتهم .

وكان كنز الربيع يسير بين اولئك الصبيان ، وهو يصرخ

كأنه يقود قطيعاً من الخنازير ، ولكنه ما لبث ان بسط يديه دهشةً لما رأى الكرسي يتجه نحو الشارع المفضي الى بيته . وحينما توقف الكرسي أمام بيته نفسه ، بدأ يفحصه بانتباه واستغراب ، بينما احتشد الصبية باستحياء حول المرأة .

نزلت المرأة عن كرسيها وهي من الذهول بحيث لم تلاحظ ان كنز الربيع كان هناك باطماره البالية وشعره المبعثر . على انها لم تلبث ان تبينته فجأة وعرفته ، لأنه لم يكبر منذ غادرته الا قليلاً ، فصرخت منتحبة :

ـ كنز الربيع !

فساورت الأطفال دهشة عظيمة . أما كنز الربيع فقد ذعر وهرع الى حضن أبيه الذي كان مستلقياً في المنزل .

ظلت المرأة وقتاً طويلاً وهي جالسة في الغرفة القذرة المظلمة دون ان تبدي حركة أو تتبادل مع زوجها أية كلمة . ولما هبط الغسق وخيم عليهما ، رفع الرجل رأسه المحني وقال لأمرأته :

ـ تحسنين صنعاً اذا هيأت العشاء .

فنهضت بجهد كبير وسارت الى زاوية الغرفة متحاملة على نفسها ، ثم قالت بصوت خفيض :

ـ ان صندوق الأرز فارغ .

فضحك الرجل ضحكة متشنجة ، وقال :

ـ ان معيشتك في بيت مثرٍ قد أثرت فيك . الأرز ؟ انه في علبة لفائف التبغ !

وفي تلك الليلة قال الرجل لأبنه :

– سترقد مع امك يا كنز الربيع .

فأخذ الطفل المنزوي قرب المدفأة ينتحب . واقبلت امه نحوه متمتمة :

– كنز الربيع ... يا عزيزي !

ولكن لمـــا مدت يدها لتداعبه وثب بعيداً عنها . فصرخ الأب به :

– هل نسيت العادة ؟ انك بحاجة الى ضرب مبرح .

استلقت الأم على الفراش الضيق النـابي ، عيناها مفتوحتان ، وكنز الربيع متمدد الى جانبها كأنه غريب عنها . وكان يخيل اليها ، في ذهنها المضطرب ، ان كنز الخريف السمين الفـاتن ، هو الذي كان هناك ، الى جانبها . فتمد ذراعهـا لتمسك به . ويلتفت كنز الربيـع في نومه ، وهو يشخر قليلاً ، فتضمه الى صدرها بقوة ، فيخبىء رأسه بين ثدييها .

والليل الصامت ، البارد كالموت ، الطويل ، الذي لا نهاية له ، يجر نفسه ... ويجر نفسه ...

سيمون القاسي

للكاتب الانكليزي ارثور موريزون

ما يزال سلوك سيمون الغريب تجـاه زوجته سراً يكتنفه الغموض. فقد كان يبدو لنساء الحي مثلاً أعلى للزوج الرصين المحب الهادىء، وكانت زوجه مخلصة له وفية بعهده، تعمل جاهدة لتوفر له أسباب السعادة، فكيف يجزيها على صنيعها شر الجزاء، وهو ذلك الزوج الامثل؟ ترى أجن الرجل فجأة؟

وقـد كانت السيدة سيمون، قبل ان تبني بهذا الرجل، أرملة رجل آخر يدعى فورد سافر في البحر على مركب تجاري غرق بمن فيه، على مقربة من رأس الرجاء الصالح.

تقول السيدة سيمون أن العناية الألهية هي التي ساقت فورد الى ذلك المصير، لأنه هجر زوجته وبيته، ورضي، رغم خبرته في فن الميكانيك، ان يسافر على ظهر المركب التجاري كعامل بسيط، كأنه هارب من عقوبة الاعدام ...

وهكذا اضطرت المرأة لاتخاذ سيمون زوجاً لها. وكان طيب الخلق سمح الطبع، فقال الناس انه وجد فيها المرأة المثلى، وانها تبذل وسعها لتجعل منه الرجل الكامل.

وما هي الا ايام معدودة مرت على زواجهما حتى هجر التدخين، وصار يختلف في أيام الآحاد الى الكنيسة، نظيف الثوب أنيق الهندام، ويضع في صينية الصدقات بنساً واحداً تعطيه اياه زوجته

لهذه الغاية ، لأنها هي التي كانت تتصرف بمرتبه وتنفقه على شؤون المنزل بنظام محكم . فاذا ما عاد من الكنيسة ، نضا عنه ثياب الاحد واعادها الى مكانها من الخزانة ، بعد ان ينفض عنها ما علق بها من غبار ، ثم ينعم بالراحة التامة ، خلافاً لأيام الأسبوع الأخرى التي يشتغل فيها ، فضلاً عن عمله في النجارة ، بتنظيف الملاعق والسكاكين والاواني النحاسية ، ومسح الاحذية وزجاج النوافذ ، وغير ذلك من الشؤون المنزلية كمرافقة زوجه الى السوق ليحمل ما تشتريه من الخضار .

كانت فضائل السيدة سيمون اكثر من أن تحصى ، واظهر هذه الفضائل براعة الأدارة وحسن التدبير . وهي تضع في مكان حريز كل بنس تقتصده من الستة والثلاثين شلناً التي يقبضها زوجها في نهاية كل اسبوع . واذا كان تومي سيمون لا يعرف مقدار المال المتوافر لديه او مكانه ، فتلك خطة حكيمة درجت عليها زوجته حرصاً على هناء الاسرة . وما شأنه وهذا ، ما دام يجد في البيت كل ما يجد الرجال في بيوتهم !

وكانت السيدة سيمون تعنى بنظافة البيت عناية خاصة ، فاذا ما عاد زوجها من عمله لم يسمح لنفسه بالدخول قبل ان يخلع نعليه ، وتحاشى جهده ان يسير على السجادة المبسوطة في الدهليز لأنها تخص زوجته أولاً ، ولأنه ينبغي لها ان تظل نظيفة أمام أعين المارين من سكان الحي . فاذا اقبل بعد ذلك على غسل يديه وقدميه ، أشرفت زوجه على هذا العمل ، لئلا يسيل الماء الى أرض المطبخ ، أو تتلطخ بعض الاواني ، او يدوس بساط الغرفة بقدميه

المبللتين .

رافقت هـــذه المرأة الحكيمة المخلصة تومي سيمون ، في أول عهدهما بالزواج ، الى حانوت كبير ، وانتقت له الثياب بنفسها لأنها تعرف ان الرجال لا يحسنون الانتقاء أو الشراء . ثم اكتشفت مكاناً تباع فيه فضلات الاقمشة بأسعار زهيدة ، فعدلت منذ ذاك عن شراء الالبسة الجاهزة الى شراء هذه الفضلات ، وطفقت تفصلها لزوجها وتخيطها بيديها . وفي اليوم الذي اكتشفت فيه هـــذه الطريقة ، خاطت له بذلة كاملة لفقتهـا من قصاصـات مختلفـة الاقمشة والاجناس والالوان . فلما ارتداها تومي يوم الاحد ومضى الى الكنيسة ، وجد أنها ضيقة حتى ليكاد يتعذر عليه السير بهـــا لكثرة ما تشد على جسده وأعضائه . وكانت القبة عاليـــة علواً شديداً ، والكتفان منخفضتين ، فاضطر أن يمط رقبته ويخفض كتفيه . ولم يلبث أن اعتـــاد السير والجلوس بتلك الثياب ، اذ اتخذت اعضاؤه بالأستمرار أوضاعاً جديدة تتلاءم معها ، ولكنه لم يستطع ان يكف عنه ألسنة رفاقـه يقـــابلونه بعاصفة من الهزء كلما طلع عليهم ببذلة جديدة ، لأن السيدة سيمون كانت تفصل الثياب الجديدة على نمط الثياب القديمة ، فبدلاً من ان يدخل عليها شيء من الاصلاح كانت تزداد سوءاً .

وقد رجا تومي زوجته مرة ان تشتري له ثياباً جاهزة ، أو ان تعهد بخياطتها الى خياط محترف ، اذ يؤلمه ان ترهق نفسها بهـذا العمل المضني فوق ما تتحمل من أعبـاء البيت ! فأخذ منها الغيظ كل مأخذ وقاطعته قائلة :

ـ كفى ... كفاك هذياناً ... انني أعرف حقيقة مرادك . انت لا يهمك ان اشتغلت زوجتك قليلاً أو كثيراً . ولكن الذي يهمك ان تلقي بأموالك من النافذة . اذهب ان شئت الى خياط يسلبك مالاً تكسبه بعرق الجبين . أهـذا هو جزائي منك على تضحياتي المستمرة ؟ ان من يسمعك يخيل اليه ان الفضة تنبت بين بـلاط منزلك !

فلزم تومي الصمت ، ولم يعترض بعد ذلك على مشاريع زوجته الاقتصادية . ولما اعتزمت ان تقص له شعره لتوفير المـال الذي يدفعه للمزين ، لم يجرأ أيضاً على الاستنكار ، فراحت تقوم بهذا العمل بمهارتها المعروفة .

ودامت هذه السعادة سنوات .

وفي ذات مساء جميل من أماسي الصيف المذهبة بأشعة الشمس الغاربة ، ذهبت السيدة سيمون الى السوق ، متأبطة سلتها الصغيرة ، لتشتري بعض لوازمها ، وتركت زوجها في المنزل . فمـــا كادت تغيب في منعطف الشارع ، حتى شرع تومي بغسل الصحون والملاعق وتهيئة مائدة العشاء ، ثم جلس يتأمل السروال الذي انتهت زوجته من خياطته في ذلك النهار ، وكان معلقاً الى جانب الباب ، ضيق الساقين ، واسع الحصر ، كثير النتوء والتعاريج . فاستيقظ في نفسه شيطان التجربة ، وبدأ يهمس في اذنه كلمات مبهمة لم يشأ ان يصغي اليها لأنـــه لا يريد ان ينسى كم هو مدين لجميل زوجته لصنعها له امثال هذا السروال . ولكن الشيطان الخبيث ما برح يراوده مذكراً اياه بالكلمات الساخرة التي يناله بها رفاقه كلما سار

في الشارع بمثل هذه الثياب المزركشة، ثم هتف به :

– القِ بهـــذه الثياب الى صندوق الاقذار، فهي لا تستحق اكثر من ذلك .

فسطا عليه الذعر، وأشاح بوجهه عن السروال، وفكر في ان يعـاقب نفسه على تلك الخواطر السوداء بأن يغسل الصحون والملاعق مرة ثانية . لكنه، لما اتجه نحو المطبخ، لاحظ ان باب المنزل مفتوح على مصراعيه، فهرع لأغلاقه، لأن هذه العادة من عادات الطبقة السفلى كانت تغضب السيدة سيمون كثيراً . ولما نزل الدرج، جالت عينه في الرواق فشاهد رجلًا يرود ثمة وينظر الى الباب بفضول . وكان وجـه الرجل نحاسياً، ويداه في جيبيه، وعلى رأسه قبعة نوتي . فتقدم من تومي وسأله :

– هل السيدة فورد في بيتها ؟

فقال تومي : ماذا تقول ؟

– السيدة فورد ... اوه، المرأة التي تدعى اليوم السيدة سيمون .

وغمز الرجل تومي بعينه، ثم سأله :

– انت زوجها، أليس كذلك ؟

– بلى .

فأخرج الرجل غليونه من جيبه، وانفجر ضاحكاً بسخرية، ثم قال :

– ليباركني الله، فأنت الرجل الذي أبحث عنه .

حاول تومي ان يغلق الباب، ولكن محدثه هتف به :

– لا تعجل يا صديقي، فقد قدمت لأفضي اليك بحديث هام .

وقطب الرجل حاجبيه، فشعر تومي بشيء من الضيق، ولم يجد بداً من ان يسأل الرجل:

ـ ماذا تريد مني؟ أنا لا اعرفك.

ـ اذن فاغفر لي جرأتي، واسمح لي ان اقدم لك نفسي...

ورفع قبعته باستهزاء صارخ، وقال:

ـ اني ادعى بوب فورد العائد من العالم الآخر. لقد غرقت مع ركاب الباخرة موالتان، منذ خمس سنوات، وعدت الآن لاستعيد زوجتي.

استطال وجه تومي دهشة، وأخذت أصابعه تعبث بشعره في حيرة، وحدق في الرجل طويلاً، وتطلع الى السماء والى الشارع، ثم عاد فحدق في الرجل العائد من العالم الآخر، ولم يجد ما يقوله. فأعاد بوب قوله:

ـ جئت لاستعيد زوجتي. فهل لك ان نتحادث في أناة؟

أغلق تومي فمه وكان قد فتحه دهشة، وصعد الدرج امام الرجل دون ان ينبث بكلمة. ولما لمح السروال المعلق الى جانب الباب عاد الشيطان الخبيث يراوده:

«ان كان الرجل هو فورد حقاً، وانه جاء لاستعادة زوجته، فهل يسره هذا الامر ام يحزنه؟»

ألقى تومي على نفسه هذا السؤال دون ان يجيب عليه. لكن صوراً جمة جالت في مخيلته هي صور السراويل، والاواني النحاسية، والصحون، والملاعق، وزجاج النوافذ، وكيّ الثياب، فاحس انه يكاد يفقد وعيه.

وكانا قد وصلا الى غرفة الاستقبـــال ، فأمسك فورد بذراع تومي وقال له :

ــ متى تحضر ؟

ــ أحسب أنها لن تعود قبل ساعة .

كان تومي قد فتح باب الشرفـة ، فنظر بوب حواليه ، وقـال مشيراً الى اثاث الغرفة بغليونه القصير :

ــ ما اجمل منزلكم ! ان هذه الكراسي كانت لها ، او كانت لي ان كنت تريد ان نتكلم بصراحة .

ثم جلس وقال وهو مستمر في تدخين غليونه :

ــ ها انا ذا اخيراً : بوب فورد الغريق الذي فقد مـــع ركاب الباخرة موالتان . ولكني لم اغرق يا صاحبي . لماذا ؟ لان مركباً شراعياً انتشلني من اليم وأقلني الى سان فرنسيسكو . ثم جبت انحاء العالم بضع سنين .

ثم استطرد بعنف ، محدقاً في تومي سيمون تحديقـــاً ينم عن التهديد :

ــ وعدت الآن كي استعيد زوجتي .

فامتنع الكلام على تومي لشدة حيرته ، ولكنه ما لبث ان قال :

ــ انها ... انها لا تحب ان يدخن احد في هذه الغرفة .

ــ هذا صحيح . أنا اعرف آنا . كيف تجدها انت ؟

ــ انا ... اني اساعدها في شؤون البيت .

ــ اعرف هذا . واراهن على انك تغسل القدر والصحون

والملاعق . واعتقد بانها هي التي تقص شعرك . أرني رأسك . اجل هذا صحيح . لكنه لم يتبادر الى ذهني مطلقاً ...

احمر وجه تومي خجلاً ، بينما تقدم بوب من السروال المعلق الى جانب الباب ، وقال :

— واراهن على انها هي التي صنعت هذا ، وانهـــا هي التي تخيط ثيابك .

عاد شيطان السوء يوسوس لتومي قائلاً :

« لو استعـــاد هذا الرجل زوجته لصار السروال من نصيبه ونجوت من عار ارتدائه بين اقراني . »

وجال في ذهن تومي انه لم يبق له عذر للبقاء في هذا المنزل ، ما دام الرجل مصراً على استعادة زوجته وهو احق بها منه . لكن فورد ما لبث ان قال :

— ان الوقت يمضي وعلينا ان نتفق على رأي . لا اريد ان اكون سيء السلوك معك . انت تقرني طبعاً على التمسك بحقوقي . لكني ، وقد رأيت امامي شاباً مثلك يعيش باطمئنان ويريد ان يحافظ على سعادته الزوجية الهادئة ، فاني اطلب ... اجل ، سأقدم على هذا العمل المنكر من اجلك ، فاقبل ان تدفع لي خمس ليرات استرلينية ، لا اكثر ولا اقل ، مقابل تنازلي عن حقوقي في استعادة زوجتي .

لم يكن في حوزة تومي خمسة بنسات فكيف بخمس ليرات ، فضلاً عن انه لا يريد ان يكون سبباً لتخلي رجل عن زوجته الشرعية اكراماً له . فقال لمحدثه وهو يهم بمغادرة المنزل :

ـ قد يكون من العسير عليّ ان ابرح هذا المنزل ، لكني سأقوم بواجبي كرجل ، فارحل عن هذه المدينة .

فامسك فورد بذراعه واعترض قائلاً :

ـ لا ... لا تصنع هذا . سأكون لطيفاً واقبل ثلاث ليرات مقابل تنازلي عن حقوقي الشرعية في هذا البيت وصاحبته . ليس هذا بكثير . تصور انني لن أعود ابداً ، ولن ارى امرأتي التي اقسمت على الامانة لعهدها . اني اخاطبك كرجل وأعدك بان اختفي عن الانظار مقابل ثلاث ليرات فقط . أليس هذا منطقياً ؟

ـ بلى ، انه لأمر منطقي ، بل هو فوق المنطق ! انه لكرم ونبل . ولكني لست بالرجل الذي يستغل طيبة قلبك وكرم عنصرك ليسلبك حقوقاً مقدسة . ايهـا السيد فورد ، ان آنا هي زوجتك ، وليس من حقي ان احول بينكما ، وإن ضميري ليأمرني بالرحيل ، وما عليّ الا ان اطيع صوت الضمير .

تقدم تومي خطوة اخرى نحو باب الغرفة ، فوقف بوب امامه وصرخ به :

ـ قف ، يجب ان تفكر في ما تقدم عليه . فكر بفراغ حياتك اذا لم يبق لك منزل تأوي اليه ، وامرأة تقضي حوائجك . انها لحياة مؤلمة ومحزنة . فلنتفق يا صاحبي . أترضى بان تدفع لي ليرتين ؟ لنقل ليرة واحدة . اني اخاطبك كرجل ، وأعدك بان لا تسمع صوتي بعدها ابداً . ولا تسمع احداً يتحدث عني . اني لا أطلب سوى ليرة واحدة تستطيع ان تستقرضها ان كنت لا تعرف اين تخبىء آنا المال . اني لا أطلب سوى ليرة واحدة ...

ودق البـــاب حينئذاك دقتين متعاقبتين ، فتوقف بوب عن الكلام وسأل تومي وقد استولت عليه رعدة ظاهرة :

ـ من الذي يدق الباب ؟

فقال تومي : أنا ذاهب لأرى ...

وانحدر عجلان على السلم ، وظل بوب في مكانه ينصت بانتباه ، فسمع تومي يفتح باب المنزل ، ورن في اذنـــه صوت آنا وهي تقول له :

ـ الى أين انت ذاهب هكذا دون قبعة ؟

وسمع تومي يجيبها وهو يبعد عن المنزل :

ـ لا تهتمي بشأني يا آنا ... اصعدي الى المنزل ، فهناك من يريد التحدث اليك ...

هرع بوب الى الشرفة ، واطل منها على الشارع ، فرأى شبح تومي يغيب تحت جنح الغسق . فتولاه ذعر شديد ، ولم يبطىء ان صعد الى حاجز الشرفـة ، وامسك بعمود قائم هناك ، وما زال ينحدر عليه خافق القلب لاهث النفس حتى بلغ الارض واختفى بدوره في طيات الظلام . فلما صعدت آنا الى المنزل لم تر فيه احداً .

وظل اختفاء تومي سيمون سراً شغل المرأة واهل الحي حقبة من الزمن .

علم الحقد

للكاتب السوفياتي ميخائيل شولوخوف

الاشجار في الحرب كالرجال ، لها مثل ما لهم من مصير خاص . لقد رأيت غابة كثيفة حصدتها نيران مدفعيتنا ، في مكان لاذ به الالمان ، بعد أن طردوا من قرية س ، وخيل اليهم انهم واجدون فيه أمناً ، فاقتلعهم الموت منـــه مع أشجار الغابة . فاذا بجذوع الشجر صرعى الى جانب الجثث المبعثرة . ولم يستطع صمغ الصنوبر العابق أن يغطي بشذاه تلك النتانة الباردة الخانقة ، نتانـة الجثث التي سعى اليها العفن ، فكأن الأرض ذاتهـا كانت ترسل ، من أعماقها المنبوشة ، رائحة قبر عتيق .

كان الموت يسود ، برهبته وصمته ، تلك البقعة الجرداء التي حرقتها قنابلنا . ولم يبق من الغابة العظيمة سوى شجرة من السنديان ظلت قائمة بأعجوبة ، تهب الريح فتمايل أغصانها الجريح وتتهامس أوراقها اللامعة . فوقف جندي أحمر كان يرافقني ، وأمرّ يده على جذع الشجرة بحنان ورفق ، وسأله بدهشة مخلصة وتأثر ظاهر :

— كيف نجوت يا صغيري ؟

والواقع ان نجاة هـــذا الجذع لعجيبة ، فأشجار الصنوبر قد تساقطت تحت القنابل كأن فأساً حطمتها واحدة فواحدة . أمـا أشجار السنديان فقـــد واجهت الموت بشكل آخر . وثمة قنبلة المانية اخترقت سنديانة عتيقة كانت منتصبة على ضفة نهر صغير لا

اسم له ، فشقتها الى نصفين يبس أحدهما تماماً ، والتوى النصف الآخر نحو النهر ، فلما كان الربيع استعاد حياته واكتسى بالورق الغض ، واليوم تغتسل في مياه النهر الأغصان السفلى من هذه السنديانة المجدوعة ، وتلح أغصان القمة على ان تمد أوراقها نحو السماء.

الملازم غيراسيموف رجل بائن الطول ، محدودب قليلاً ، ذو منكبين عريضين محددين كجناحي الصقر ، وهو جالس أمام متراس من الأسمنت ، يروي لرفاقه تفاصيل المعركة التي خاضها في النهار وهجوم الدبابات العدوة التي صدها الجيش الاحمر.

كان وجه الملازم هادئاً ، ويكاد ان يكون جامداً ، وعيناه قد قرحها السهر . وكان يتكلم بصوت خفيض ، وهو يعقد أصابعه ويرخيها ، فتعبر هذه الحركة عن ألمه الصامت وتفكيره العميق ، لكنها لا تنسجم البتة مع هيكله العملاق ووجهه الذي تصرخ الرجولة فيه .

وصمت بغتة وقد تبدلت معالم وجهه ، فشحب خداه الأسمران ، وعرت نكيه رعشة ظاهرة ، واشتعلت عيناه بحقد رهيب كان من القوة بحيث دفعني الى الألتفات لرؤية الشخص أو الشيء الذي ينصب هذا الحقد عليه . فشاهدت ثلاثة أسرى من الالمان يجتازون الغابة ، وخلفهم خفير أحمر يمشي متباطئاً ، مداعباً بندقيته التي تلمع حربتها في الشمس . والاسرى الالمان يسيرون أمامه بتثاقل ، وينقلون أقدامهم مكرهين .

وكان الالماني الذي يسير في طليعة رفيقيه ، في منتصف العمر ،

ذا خدين اجوفين تغطيها لحية كثة شقراء . فلما بلغ المتراس ، ألقى علينا نظرة مرائية أشبه بنظرة الذئب ، ثم أشاح عنا بوجهه متابعاً سيره وهو يعدّل وضع قبعته المعلقة بحزامه . فوثب غيراسيموف حينئذ صارخاً بالخفير بصوت قاس :

– هاي ... اجبني ، انت ، أتحسب انك ذاهب بهم الى النزهة ؟ ضاعف خطاك ، واسرع قليلا ... أتسمع ؟

وبدا كأنه يريد ان يقول شيئاً آخر ، لكن شدة اضطرابه حالت دون ذلك ، فانثنى عجلان ، وهبط درجات المتراس . ولاحظ المفوض السياسي دهشتي فهمس في اذني :

– انها الأعصاب ! لقد كان اسيراً لدى الألمان . ألا تعرفه ؟ حادثه يوماً . لقد عانى هناك أهوالاً شداداً ، فلم يبق في وسعه ان يرى هتلريين أحياء . أقول : أحياء ، لأنه ينظر الى الاموات منهم بلذة وغبطة . اما اذا شاهد الأسرى فهو يغلق عينيه ويظل جامداً شاحباً ينضح جبينه عرقاً . وقد اتفق لي أن رافقته مرتين في بعض الهجمات التي شنتها جيوشنا ، فاذا به قوي كالجواد الأصيل . لقد شاهدت كثيراً من ضروب القتال ، لكني لم أشهد أرهب أو أروع من ضربه بمؤخر بندقيته أو طعنه بحربتها .

في تلك الليلة أصلتنا مدفعية الألمان الثقيلة ناراً متواصلة . كانت طلقة المدفع تدوّي بعيداً ، بانتظام ، وفي فترات متساوية . وبعد ثوان يتردد عواء القنبلة في السماء الصافية ، فيشتد فوق رؤوسنا ، ثم يبتعد ، ثم نشهد خلفنا ، على الطريق التي تقاطرت

عليها في النهار قوافل الذخيرة في سبيلها الى الجبهة ، لهيباً يضيء الأفق بنور أصفر ، ونسمع صوت الانفجار الراعد .

وبين انفجار وآخر ، حينما كان السكون يسود الغابة ، كانت الصراصر والضفادع التي اقلقتها طلقات النار ، تتنادى وتتجاوب بخفوت في غدير قريب .

كنا متمددين تحت شجرة بندق ، والملازم غيراسيموف يحدثنا عن نفسه ، وهو يطرد البرغش بغصن في يده . وها أنا أنقل قصته كما استطاعت ذاكرتي تسجيلها :

« كنت قبل الحرب عاملاً ميكانيكياً في سيبيريا الغربية ، وقد دعيت الى الأنضواء تحت العلم السنة الماضية في اليوم التاسع من تموز . وكان لي زوجة وأطفال وأب قعيد . فلما ودعتهم بكت زوجتي وقالت لي : « دافع عن الوطن ودافع عنا ، واذا وجبت التضحية بحياتك من أجل النصر فلا تبخل بها . » وأذكر أني أجبتها ضاحكاً : « آه ... أإلى هذا الحد ؟ هل انت زوجتي أم أنت داعية في الأسرة ؟ اني لست طفلاً ... أما بشأن القضاء على الفاشيست ، فبوسعك ان تكوني مطمئنة . »

أما أبي فكان اقوى عزماً وأهدأ جأشاً ، لكن لم يفته هو ايضاً ان يصدر اليّ بعض أوامره :

– منذ عصور طويلة واسرتنا تنجب للوطن حديداً صلباً ، فيجب ان تثبت في هذه الحرب أنك من هذه الاسرة... يجب ان تكون رجلاً من حديد ... لقد جعلت حكومتك منك ضابطا احتياطياً قبل الحرب ، فينبغي لك ان تنقض الآن على

العدو ببسالة !

– سيكون ذلك يا أبي ...

ومررت ، في طريقي الى المحطة ، بمكتب لجنة الحزب المحلية ، وكان سكرتيرنا هو الغاية في الجفاف ، لا يصغي الا الى صوت العقل ، فقلت لنفسي : « اذا كان أبي وزوجتي قد أثقلاني بدعايتهما ، فما عسى ان يكون شأني مع سكرتير اللجنة ؟ لا ريب في أنه سيلقي عليّ خطاباً يستغرق نصف ساعة على الاقل ! »

لكن الأمر كان خلاف ما قدرت ، فقد ابتدرني السكرتير بقوله :

– انتظر يا غيراسيموف ، فانه لينبغي لنا ، على مألوف العادة الروسية ، ان نتحدث هنيهة قبل رحيلك .

فجلسنا بضع ثوان صامتين ، ونفسي تهجس بأن هذا اليوم مليء بالمعجزات . وما لبث السكرتير ان قال :

– ان كل شيء واضح ، ايها الرفيق غيراسيموف . لقد عرفتك يوم كنت أقصر من جزمة ، وكنت تعقد على رقبتك ربطة حمراء . منذ ذلك الوقت عرفتك . ثم رأيتك عضواً في منظمة الشباب الشيوعي . اني اعرفك شيوعياً منذ عشر سنوات . فاذهب واقتل تلك الأفاعي دونما رحمة . ان لجنة الحزب تضع فيك ثقتها وهي تنتظر منك كثيراً ...

وتعانقنا لاول مرة ، وقد بدا لي رجلاً آخر غير تلك القطعة الخشبية التي كنا نتخيل أنه شبيه بها ، وشعرت بالحرارة تملأ قلبي ، وغادرته دهشاً طروباً .

وأضحكتني زوجتي مرة اخرى ... ان امرأة تشهد رحيل زوجها الى الجبهة لا تستطيع طبعاً ان تكون مبتهجة ، لكن حزن ناديا قد شتت ذهنها . كانت تحاول ان تقول شيئاً ذا قيمة فلا تستطيع ان تجمع خواطرها الموزعة . ولما بدأ القطار يتحرك كانت ما تزال واقفة أمام العربة ، ويدها تضغط يدي ، فقالت لي على استعجال : « انتبه يا فيكتور ... وحاذر خصوصاً ان تتعرض للبرد ! » فأجبتها : « لا تفكري بهذا ، ياله من خاطر ، يا ناديا ... أتعرض للبرد ؟ أبداً ، أبداً ... ان الطقس هناك بديع ومعتدل ! »

وقد تألمت لمفارقتها ، لكن كلماتها العزيزة الفارغة فرّجت عني وشرحت صدري ، وشعرت في الوقت نفسه بغضب أصم يجيش في نفسي على الالمان . وتمتمت : « آه ! لقد هاجمتمونا ايها الجيران الغادرون ! حسناً ، جربوا اذن ان تثبتوا أمامنا ، فانكم ستتلقون ضربة قاصمة... »

لبث غيراسيموف بضع دقائق صامتاً ، مصيخاً بسمعه الى صوت الرشاش الذي ارتفع من الخطوط الاولى ، ثم انقطع الصوت فجأة كما ابتدأ ، فتابع الملازم حديثه :

« كان مصنعنا يتلقى قبل الحرب ماكنات ألمانية ، فكنت افحص جيداً كل آلة منها فلا اجد فيها عيباً : ان يداً بارعة قد صنعتها ! وكنت اقرأ مؤلفات الكتاب الألمان . وقد اعتدت ان افكر في الشعب الألماني بعاطفة من الاحترام ، فكان يغيظني ان يصبر شعب مجدّ ماهر مثله على النظام الهتلري المنحط ، لكني كنت اقول : ذلك شأنه ! ثم بدأت الحرب في اوروبا الغربية .

ولما كنت شاخصاً الى الجبهة جعلت أفكر بأن للألمان تكنيكاً قوياً وجيشاً لا يستهان به ، فمقاتلة مثل هذا الخصم تنطوي على شيء من الأغراء . ولم اكن لأنتظر ، طبعاً ، ان يكون في سلوك الاعداء بعض المروءة ، فأي تصرف شريف يرجى من الفاشيست ؟ على اني لم اتصور قط انني سأحارب سفلة أخساء كأفراد الجيش الهتلري الذي عرفناه الآن .

وصلت وحدتنا الى الجبهة في أواخر تموز . وفي اليوم السابع والعشرين من ذلك الشهر خاضت اولى معاركها . وكنا في البدء قليلي الدربة والحذاقة ، ولم تدع لنا مدافع الهاون الألمانية فترة من الراحة . فلما كان المساء ألفنا الحرب بعض الشيء ، واخرجنا الألمان من قرية كانوا فيها ، واسرنا منهم خمسة عشر جندياً . وما ازال اذكر ان رجالي أحاطوا بالاسرى وقد فترت فيهم حرارة القتال ، وبدأوا يقدمون لهم الحساء والتبغ والشاي ، ويربتون على اكتافهم ، ويسمونهم « رفاقاً » ، ويسألونهم : « لماذا تحاربوننا ايها الرفاق ؟ »

الا ان رجلاً من احدى الفصائل العاملة معنا ، قال لنا وهو يتأمل هذا المشهد المؤثر : « شدما تعنون بهؤلاء الأصدقاء الطيبين ! سرعان ما أصبحتم رفاقاً ! فليتكم ترون ما يصنعه هؤلاء الرفاق هناك ، في الخط الثاني من الجبهة ، وكيف يعاملون أسرانا والسكان الآمنين ... » قال ذلك ومضى لشأنه ، فشعرنا كأن ماء بارداً قد اهرق علينا .

وما لبثنا ان رأينا ... حين انتقلنا الى الهجوم ! رأينا قرى اضحت رماداً ، وشيوخاً واطفالاً اعدموا رمياً بالرصاص ، وجنوداً حمراً شطرت جثة الواحد منهم الى نصفين ، ونساء وعذارى وفتيات صغيرات اغتصبن وقتلن ومثل بهن ...

وقد رسخت في ذاكرتي صورة احدى هؤلاء الفتيات . هي صبية في الحادية عشرة من عمرها كانت ولا شك في طريقها الى المدرسة حين قبض عليها الالمان ، وساقوها الى احد البساتين ، فاغتصبوها ثم قتلوها . كانت تلك الطفلة صريعة بين كتبها ودفاترها المضرجة بالدماء ... وقد تشنجت يدها على محفظتها الفارغة ، وتهشم وجهها تهشيماً شنيعاً بحراب الجنود . فسجينا جثتها بأحدى الخيام ، ولبثنا أمامها جامدين واجمين . ثم توزع الجنود في صمت ، فبقيت وحدي وقد استولى علي جنون الغضب ، وأنا اتمتم : « الجغرافية الطبيعية ، بقلم باركوف وبولوفانكين ، لطلاب المدارس الابتدائية ». لقد قرأت ذلك على غلاف احد الكتب المتناثرة بين الاعشاب ، وكنت اعرف هذا الكتاب جيداً ، فان ابنتي ايضاً تدرس في الصف الخامس ...

كان ذلك غير بعيد من روجينو . وقد رأينا في واد قريب من مدينة سكفيرا مشهداً آخر . رأينا مكاناً للتعذيب نكل الالمان فيه بالأسرى الحمر . هل دخلتم مرة الى مسلخ ؟ ان منظر ذلك المكان لايختلف عنه في شيء . جذوع بشرية ، لا أيد ولا أرجل لها ، كانت تتدلى من اغصان الشجر . وثمة حفرة تكدست فيها كومة من الجثث يستحيل على الناظر اليها ان يميز لأي من الضحايا هذه

الساق أو هذه اليد أو تلك القدم !

انه يستحيل على المرء ان يعبر بكلمات عن كل ما ارغمت على رؤيته ، لأن مثل هذه الكلمات لا وجود لها . ينبغي للمرء ان يشهد ذلك بنفسه كي يحيط بالحقيقة احاطة تامة . »

توقف الملازم غيراسيموف عن الكلام برهة ، فسألته :

– أيستطيع المرء ان يدخن هنا ؟

فأجابني بصوت مبحوح :

– أجل ، لكن احجب لفافتك بيدك .

واستطرد بعد ان اشعل لفافة له :

« لقد كنا كالمجانين من الغضب ، بعد ان رأينا ما صنعه الألمان . وهل بأستطاعتنا ان نكون غير ذلك ؟ لقد ادركنا جميعاً اننا لا نحارب بشراً ، بل مخلوقات يسكرها الدم . رأينا الالمان يقتلون رجالنا ونساءنا ، ويفترسونهم ، ويعذبونهم ، بمثل الدقة والعناية اللتين كانوا يصنعون بها الماكنات . وقد اضطررنا ان ننكفىء أمامهم . سوى اننا كنا نقاتل كالشياطين .

كان اكثر رجالي من سيبيريا ، لكن ذلك لم يمنعنا من الدفاع عن الارض الاوكرانية بضراوة . وقد صرع في اوكرانيا كثير من رفاقي . الا اننا قتلنا عدداً اكبر من الألمان . وقد كنا نتراجع منزلين بالعدو في خلال تراجعنا ضربات ما كان يحسب ان مثلها يسدد اليه . »

عب الملازم غيراسيموف دخان لفافته وقال في شيء من العذوبة :

« ألا ما أطيب الارض في اوكرانيا ، وما أجمل الطبيعة فيها ! كانت كل بلدة وكل قرية عزيزة علينا كأننا نعرفها منذ زمن بعيد . ولعل مبعث ذلك ما بذلناه من دمنا بسخاء دفاعاً عن تلك البقعة الغالية ، والدم ، كما تعلمون ، ينشىء أواصر وثيقة من القربى . ومن ثم كان قلب واحدنا ينكمش اذا تراجعنا عن مكان ما ، وينقبض ، كمن حلت به اللعنة ... كان ذلك عسيراً علينا ، بل كان الغاية في الألم ، فكنا نغادر البلدة او القرية ونحن نتحاشى النظر اليها .

لم يكن ليهجس في خاطري اني قد اقع اسيراً لدى الالمان . لقد جرحت في اوائل ايلول وبقيت بين رفاقي ، لكني جرحت ثانية في اليوم الحادي والعشرين من ايلول ، خلال معركة دفيسوفسكا في منطقة بولتافا ، وقضي عليّ هذه المرة ان اكون اسيراً ...

اخترقت الدبابات الالمانية جناحنا الايسر ، وتبعتها فرق المشاة ، فأنشأنا نتراجع تفادياً من التطويق . الا اننا لم نكف عن القتال لحظة واحدة . في ذلك النهار تكبدت فرقتي خسائر جسيمة ، فقد رددنا مرتين هجمات الدبابات المعادية لنا ، واحرقنا منها ستاً ، وعطبنا سيارة مصفحة ، وقتلنا في حقل من الذرة مائة هتلري ، ولكن الالمان ما عتموا ان صوبوا الينا مدافع الهاون وارغمونا على التخلي عن هضبة لبثنا ندافع عنها من الظهر الى الساعة الرابعة . وكان النهار حاراً منذ الصباح ، والشمس تكاد تخنقنا

بلهيبها ، والالغام تنفجر واحد بعد آخر ، وقد أجهدنا الظمأ حتى اسودت شفاهنا ، وأنا ، في غمرة ذلك كله ، ارسل الاوامر بصوت أجش ليس هو صوتي المعتاد . وفيما نحن نجتاز وادياً انفجر لغم بين قدمي ، فاخترقت قبعتي شظية طائشة ، وأصابتني في كتفي الايمن شظية اخرى ، ورأيتني في زوبعة سوداء من التراب ...

لا أذكر كم لبثت فاقداً رشدي ، ولكني اذكر اني أفقت على صوت اقدام ثقيلة تقترب مني ، فوجدت نفسي في المكان نفسه الذي سقطت فيه ، وقد ضمد جرحي على استعجال ، ولف رأسي بعصابة يتدلى طرفها على صدري . فحاولت النهوض لأرى رفاقي ، فلم اقع ثمة على جنود حمر ، بل على المان يتراكضون .

لقد ثابت الي حواسي على ضجة أقدامهم ، فشاهدتهم بوضوح ، ومددت يدي التمس سلاحاً فلم اجد حتى قنبلة يدوية ، فان رفاقي قد نزعوا عني أسلحتي والمحفظة التي تحتوي خارطة المنطقة .

قلت لنفسي : « انه الموت يداهمني ! .. » بماذا فكرت ايضاً في تلك اللحظة ؟ ان كان ذلك ينقص روايتك المقبلة فاخترع شيئاً ، لأنه لم يكن لدي حينذاك وقت للتفكير . كان الالمان قريبين جداً ، ولم اكن اريد ان اموت مستلقياً . أتفهم ؟ لم اكن اريد او استطيع ان اموت مستلقياً . فجمعت قواي كلها ، ونهضت على ركبتي معتمداً الارض بيدي . ولما وصلوا الى جانبي كنت قد نهضت تماماً . لقد وقفت ، لكني كنت اتمايل واخشى السقوط ، مخافة ان تمزقني الحراب وأنا على الارض . لم تبق في مخيلتي صورة احد الوجوه التي أحدقت بي لاغطة متضاحكة . على اني اذكر

اني صرخت بهم : « هيا ! اقتلوني ايها الانذال ، اقتلوني قبل ان اقع ! فضربني احدهم ببندقيته على عنقي . فسقطت ، لكني بادرت الى النهوض . فانفجروا ضاحكين ، واشار الي احدهم ان اسير الى امام . فسرت والدم الجامد يصبغ وجهي ويسيل من رأسي ... دم حار لزج ... واشتد الم ذراعي حتى لم ابق قادراً على ان ارفع يدي . لقد داخلتني وقتذاك رغبة مستبدة بالتمدد على الارض والانقطاع عن الحركة ... الا اني كنت أمشي ... كلا ، لم تكن بي رغبة في الموت ، وخصوصاً في البقاء أسيراً . وقد استطعت بكثير من العناء ان اغالب الدوار الذي اعتراني ، وان اواصل المسير . اني اسير ، اذن أنا حي ، واذن فان في وسعي القيام بعمل ما .

وكان الظمأ يعذبني ، فأشعر كأن فمي يحترق ، وان امام عيني حجاباً أسود يتموج . كنت فاقد الوعي تقريباً ، لكني كنت اسير قائلاً لنفسي : « سوف اهرب متى شربت جرعة من الماء وتمتعت بقليل من الراحة . »

على طرف احد الغياض ، حشد الالمان أسراهم . وكان اكثر هؤلاء جرحى من الفرقة السوفياتية المجاورة لنا ، ولم ار بينهم سوى اثنين من فرقتنا . ثم سألنا ملازم بلغة روسية سقيمة ، هل بيننا مفوضون او ضباط ؟ فالتزمنا الصمت . فاعاد سؤاله مرة ثانية قائلاً : « ليتقدم المفوضون والضباط خطوتين الى الامام . » فلم يخرج احد من الصف .

جال الملازم الالماني امام الاسرى المصطفين ، واختار ستة عشر رجلاً منهم تخيل فيهم الطابع اليهودي . كان يسأل الواحد منهم : « جود ؟ » ثم يخرجه من الصف عنوة دون ان يسمع جوابه . وكان بين هؤلاء الستة عشر يهود وارمن وروس ذوو شعر اسود وبشرة نحاسية . فاقتيدوا جميعاً الى جانب ، واعدموا امام أعيننا . اعدموا جملة بطلقات بندقية رشاشة . ثم فتشنا جندي الماني على استعجال ، فجردنا من محافظنا وحاجاتنا الشخصية . وكان من عادتي ان لا احمل بطاقتي الحزبية في محفظتي مخافة ان افقدها ، وكانت حينذاك بجيب داخلي في سروالي ، فلم يعثر عليها اذ فتشت .

لعمري ان الانسان لحيوان عجيب : لقد كنت اعلم ان حياتي معرضة لأكبر الاخطار ، فاني ان نجوت من القتل حين احاول الهرب ، فسأقتل لا محالة في الطريق ، لأني لن استطيع ادراك رفاقي وقد نزف مني ذلك المقدار الكبير من الدم . لكني مع ذلك ، لما بقيت لي بطاقتي الحزبية بعد تحريهم ، شعرت بالسعادة تغمرني حتى نسيت ما أكابد من ظمأ .

ساروا بنا نحو الغرب تحرسنا ثلة من الجند محدقة بنا من جانبي الطريق ، ويرافقنا عشرة من راكبي الدرجات النارية . وأرغمونا على الاسراع ، فنفدت قواي ، وسقطت مرتين ، لكني كنت اسارع الى النهوض ، والى مواصلة السير ، ليقيني من أني سأقتل في مكاني ان بقيت على الارض دقيقة واحدة بعد مرور القافلة . وقد حدث ذلك فعلاً للملازم كان يسير امامي . كان جريحاً منهوك القوى يتقدم وهو يئن ، مرسلاً بين حين وآخر صرخة عالية ،

وبعد ان اجتاز مسافة كيلومتر واحد صاح متألماً :

«كلا ، لم يبق في وسعي ابداً ... وداعاً ايها الرفاق ! »

وجثم في منتصف الطريق . فحاولنا انهاضه اذ مررنا به ، لكنه كان لا ينهض حتى يتهالك على الارض مرة ثانيـة . واني لأرى وجهه الشاحب وحاجبيه المقطبين وعينيه الطافحتين بالدمع ، كأني راه في حلم ! لقد بقي وراءنا ... ولما التفت لأراه ، شاهدت احـد راكبي الدرجات النارية قد حاذاه ، فأخذ مسدسه دون ان يترجل ، ووضعه على اذن الجريح ، واطلق الرصاص . وقد قتل الالماني على هـــذا الفرار ، قبل ان نبلغ النهر ، بضعة جرحى آخرين تخلفوا في الطريق .

ولما تراءى لي النهر ، سقطت على وجهي فوق الارض . هـل فقدت رشدي ؟ كلا . استلقيت وتمددت ، وقد امتلأ فمي بالتراب ، وجعلت أسناني تصطك ، ولم يبق بوسعي ان انهض . وكان رفـاقي يمرون بي فقال احدهم بعذوبة :

ـ انهض ، والا فانك ستقتل !

فأخذت امزق فمي ، وادخل اصابعي في عيني ، كي يحفزني الألم على النهوض ... وكانت القافلة قد تخطتني ، وسمعت الدراجة النارية تقترب مني ، فتحاملت على نفسي ، وقمت أتمايـــل كالسكران ، وأرغمت نفسي على اللحـاق بالصفوف الاخيرة دون ان ارنو الى وراء .

كانت الدبابات والسيارات قد عكرت مياه النهر ، الا اننـا شربنا ذلك الوحل الاحمر الفاتر ، وقد بدا لنـــا أعذب من ماء

الينبوع . وسكبت الماء على رأسي وكتفي ، فابتردت ، واستعدت قليلاً من قواي ... الآن استطيع مواصلة السير آملاً ان لا اقع ولا اتخلف في الطريق .

ما كدنا نبتعد قليلاً عن النهر ، حتى رأينا فصيلة دبابات المانية تقبل نحونا متدحرجة . ولما عرف قائد الدبابة الامامية اننا أسرى ، اطلق دبابته بيننا بملء قواها ، فتهاوت الصفوف الاولى منـــا ، وانسحقت تحت الدواليب . وجعـــل الخفراء المترجلون وراكبو الدراجات النارية يتضاحكون ويتنادرون مـع سائقي الدبابات الذين أخرجوا رؤوسهم من معاطفهم واخـذوا يلوحون بأيديهم جذلاً . ثم اعاد الخفراء تنظيم صفوفنا ، وساقونا الى جانب الطريق . ولم يكن ثمة مجال للاستنكار ، فالألمان الفاشيست وحوش مرحة .

لم أفكر بالهرب في ذلك المساء ، أو في تلك الليلة بطولها . فقد كنت ادرك انني لن استطيع ذلك لكثرة مـا فقدت من دمي ، وبسبب الرقابة الشديدة التي كانت تعاقب بقسوة كل محاولة من هذا القبيل . غير اني كثيراً ما لعنت نفسي بعد ذلك ، لأني لم اجرب حظي يومذاك كما جرب آخرون .

وبلغنا في الصباح قرية عسكرت فيها وحدة المانية ، فكان الجنود الالمان يتراكضون في الشوارع لرؤيتنا . وقد أرغمنا الخفراء على الخب كالجياد لتحقيرنا امام الوحدة الالمانية الذاهبة الى الجبهة . فكنا نعدو تحت السياط ، فاذا ما عثر احدنا او بقي في المؤخرة قتل فوراً .

في مساء ذلك النهار وصلنــــا ، اخيراً ، الى معسكر لأسرى

الحرب . فعهد خفراؤنا بنا الى حرس المعسكر .

اذا شبهت ذلك المكان بالجحيم ، فاني لا اكون قد قلت شيئاً ... لم يكن هناك غرف ، بل كان الاسرى يقفون او يستلقون في الساحة الموحلة او بين الاقذار . وكان يقدم الى كل واحد منا ، كل اربع وعشرين ساعة ، كأس من الماء وحفنة من حبوب الذرة البيضاء . وكثيراً ما كانت تنقضي ايام دون ان نعطى ايّ غذاء .

ولما تساقطت الامطار ، غاص الاسرى في الوحل الى ركبهم ، وكان البخار يتصاعد في الصباح من هؤلاء البشر كما يتصاعد من الجياد . وكل ليلة كان يموت منهم عدد كبير ، وينهك الجوع قوى الآخرين .

كانت جراحي تضنيني ، وقد بدأ الصديد يسيل منها وصارت تمج رائحة كريهة . ولازم رأسي صداع مبرح . وكان الالمان قد حشدوا الجرحى المشرفين في اسطبل قريب . فطلبت من الحارس ان يرسلني الى الضابط الموكل بمعالجتهم . وكان هذا الحارس ملازماً يعرف اللغة الروسية ، فأجابني :

– اذهب ايها الروسي الى طبيبك ، فهو سيعنى بك حالاً !

فلم افطن لسخريته ، وجررت نفسي الى الأسطبل مبتهجاً . فالتقيت الطبيب على الباب ، وهو ضابط عجوز انحله الوهن واوشك ان يجن لكثرة ما كابد . وكان الجرحى متمددين على روث الحيوانات ، وهم يكادون يختنقون من نتانة الاسطبل ، وجراح اكثرهم قد فرخت دوداً ، فأخذ ينتزع هذه الديدان من يستطيع

ذلك منهم ، بأصابعهم او بقضبان صغيرة ... والى جانب الجرحى ، في زاوية من الأسطبل ، تكومت اكداس من الجثث لأن كثرة الموتى ما كانت لتدع مجالاً لدفنهم حالاً .

اشار الطبيب الى ذلك المشهد قائلاً :

ـ ألا ترى ؟ كيف استطيع مساعدتك ؟ ليس لدي ضماد او اي شيء آخر . اتوسل اليك ان تذهب عني . انزع رباطك وداوِ جراحك بالرماد ... ان الى جانب الباب رماداً جديداً .

وضعت الرماد على جراحي وعدت الى المعسكر ، فاستقبلني الحارس بابتسامة عريضة وابتدرني بقوله :

ـ ماذا رأيت ؟ أن لدى جنودك طبيباً ممتازاً ! هل اعطاك العلاج اللازم ؟ فأردت ان أمر دون أن اجيب ، لكنه صفعني بقبضة يده وهو ينبح بوجهي :

ـ ألا تريد ان تجيبني ايها الحيوان ؟

فوقعت ، وانهال على رأسي وصدري ضرباً بقدمه ، ولم يزل يدوسني حتى اجهده التعب . لن انسى ذلك الالماني ما عشت . كلا ، لن انساه أبداً . لقد ضربني بعد ذلك مائة مرة . . . كان كلما رآني من خلال الأسلاك الشائكة يأمرني بالخروج ويضربني في صمت !

أتسألونني كيف بقيت على قيد الحياة ؟

قبل ان اغدو عاملاً ميكانيكياً ، اشتغلت مرة بنقل اكياس الملح ، فكنت احمل على ظهري كيسين معاً ، وكان كل كيس يزن قنطاراً . اجل ، لم تكن تنقصني القوة ، فأني اتمتع

بجسم متين التركيب . لكني لم اكن اريد ان اموت ، على الاخص ... كانت الرغبة في المقاومة عظيمة في نفسي : كان يجب عليّ ان اعود الى صفوف المدافعين عن الوطن . ولقد عدت كي انتقم من اعدائي حتى النفس الاخير .

لم يلبث الجلادون ان نقلوني الى معسكر آخر يبعد عن المعسكر السابق مائة كيلومتر ، لكن طريقة الحياة فيهما كانت واحدة ، الا ما كان من اطعامنا هنا جيف الجياد ، فكنا نأكلها راغمين لنخفف من وطأة الجوع ...

وكان البرد قد ابتدأ ، واخذ المطر يتساقط طوال الليل ، وفي الصباح تهب انفاس الصقيع ، ونحن لا غرفة تضمنا ولا سقف يحجب عنا المطر والجليد . وعبثاً كنت اتقي البرد بمعطف اخذته عن جثة جندي احمر ، فقد كان البرد يتعاظم ... اما الجوع فقد تعودناه .

كان يقوم على حراستنا جنود انتفخت بطونهم لكثرة ما سلبوا من ارزاق الناس . وكانت اخلاقهم متشابهة كأنها صبت في قالب واحد . كانوا يتسلون بنا ... فيدنو احدهم في الصباح من الاسلاك الشائكة هاتفاً :

– توزيع الطعام من الجهة اليسرى ...

فيحتشد في الجهة اليسرى من المعسكر كل من يستطيع النهوض منا . وننتظر هناك ، ويطول بنا الانتظار بضع ساعات ... مئات من الهياكل العظمية الحية المرتعدة كانت تتحامل على نفسها وتنتظر صابرة تحت عصف الريح .

وفجأة يقترب نفر من الالمان ويلقون الينـــا عظام حصان ميت ، فتنغمس في الوحل ، وينقض عليها الجـــائعون . والالمان يتضاحكون ملء افواههم ، ثم يسددون الينا الرشاشات ويطلقون النار ، فيتعالى الصراخ والانين ، ويهرع الاسرى الى الجهة الثانيـة من المعسكر مخلفين وراءهم كومـة من القتلى والجرحى . وحينئذ يدنو من الاسلاك الشائكة ملازم الماني ويصرخ بنا وهو لا يكاد يتمالك نفسه من الضحك :

– لقد اضطرب النظام في اثناء توزيع الطعام ... هيا احملوا جثث الموتى .

ويقهقه الجنود الالمان المتجمعون وراء رئيس المعسكر لشدة اعجابهم بنادرة صاحبهم ، بينما نحمل نحن أمواتنا في صمت وندفنهم في واد قريب .

ولقد كانوا يضربوننا بأيديهم وعصيهم واعقاب بنادقهم ، دونما سبب لمجرد التسلية ، وكانت جراحي قد التأمت فتفتحت في هـذا المعسكر من جديد لما تعرضت له من برد وضرب . لكني كنت اريد ان احيا ، ولم افقد أملي بالخلاص !

كنا ننام في الوحل ، بعضنا متراص فوق بعض ، متقلبين في سكون الليل ، متعرضين لريح مثلجة ... فلم يكن النوم راحة لنا بل عذاباً رهيباً .

وتعاقبت الايام على هذا الغرار كأنها كوابيس ثقيلة . وهزلت حتى اصبح في طاقة ولد صغير أن يصرعني . فكنت انظر مرتاعاً الى ذراعي اليابستين اللتين لا يكسوهما سوى الجـــلد والعظم ،

واتساءل : « كيف أستطيع الذهاب من هنا بعد الآن؟ » وانهال على نفسي بالسباب لأني لم احاول الهرب منذ اليوم الاول . فلو قتلت حين ذاك ، لما قاسيت ، على الاقل ، هذا العذاب!

ولما حل الشتاء كنا قد اصبحنا اقل عدداً ... فأنبأونا يوماً انهم سيقودوننا قريباً الى العمل . فدبت الحياة فينا ، وشعر كل منا بانه قد استيقظ في نفسه امل بالهرب او شعاع ضئيل من الامل .

وذات ليلة حلوة لكنها قارصة البرد ، تناهى الى اسماعنا قبيل الصبح ، دوي مدافع تزأر باستمرار ، فتحرك الاسرى من حولي ، وصرخ احدهم :

ــ ايها الرفاق ، ان جيشنا يهاجم

تلك هنيهة لا توصف ... لقد انتصب الاسرى كلهم كأنهم قد تلقوا امراً بالوقوف ... نهض حتى اولئك الذين لم يتحركوا من امكنتهم منذ أيام طوال . وسمعت حولي تمتمة حارة ونحيباً مخنوقاً . كان ثمة من يبكي الى جانبي منتحباً كامرأة . وانا ايضاً ... وانا ايضاً ...

قال غيراسيموف ذلك باستعجال ، وبصوت متقطع ، ولبث صامتاً بضع ثوان استعاد فيها رباطة جأشه ، واستطرد بصوت اكثر هدوءاً واقل انفعالاً :

ــ وانا ايضاً شعرت بالدموع تنحدر على خدي فتجمدها الريح . وبدأ احدنا ينشد الانترناسيونال بصوت ضعيف ، فرافقته اصواتنا الباردة المرتجفة . واذا بالالمان يصبون علينا نيران رشاشاتهم ،

وسمعنا صوتاً من بيننا يأمرنا :

– استلقوا على الارض !

فاستلقيت ، واخذت اغرز جسمي في الثلج ، وانا ابكي كالطفل . ولم يكن الفرح وحده مبعث تلك الدموع ، بل كانت ايضاً دموع الفخر بشعبنا . فقد يستطيع الالمان ان يقتلونا ، نحن الذين نزعت اسلحتنا ونزفت دماؤنا واجهدنا السهر والجوع ، وقد يستطيعون ان يرهقونا بالوان العذاب ، لكنهم لا يستطيعون تحطيم ارادتنا ولن يحطموها ابداً .

لم استطع ، تلك الليلة ، ان اسمع نهاية قصة الملازم غيراسيموف . فقد استدعي على عجل الى مقر القيادة في وحدته . لكني التقيته بعد ايام في الغابة ، وكانت رائحة الجثث تموج فيها مع رائحة الصمغ ، والملازم جالس على مقعد ، وقد انحنى ظهره ، وانعقدت يداه على ركبتيه . فخطر لي وانا انظر اليه انه قد تعود ، هناك ، في معسكر الاعتقال ، ان يلبث هكذا ، رابضاً ، معقود اليدين ، صامتاً ابداً ، غارقاً في تأملات شاقة عميقة ...

– أتسألني كيف استطعت الهرب ؟ بعد ان سمعنا زئير مدافعنا تلك الليلة ، وكان من امرنا ما عرفت ، ارسلنا للعمل في بناء المتاريس . وكان الجليد قد عقب البرد ، والمطر لم ينقطع . فساقونا الى الشمال ، وتجددت المآسي السابقة : الرجال المنهوكون يسقطون فيقتلون وتترك جثثهم على قارعة الطريق ...

وفيما كنا نجتاز حقلاً من البطاطا ، قتل الضابط الالماني ضابطاً

او كراثاً لانه التقط وهو يسير قطعة منها . لا ادري كيف حدثت الضابط غونتشار نفسه بالتقـاط تلك القطعة الملونة من البطاطا . فقد رآه الضابط الالمـاني ، فاقترب منه وافرغ رصاص مسدسه في رأسه دون ان ينبس احدهما بكلمة . ثم اوقفنا الضابط وقال لنا ملوحاً بيده ، مشيراً اشارة عريضة :

– ان هذا كله ملك الدولة الالمانية ، ولسوف يعاقب بالقتل كل من تسول له نفسه ان يمد اليه يداً .

ومررنا باحـدى القرى ، فاحتشد الاطفال والنساء على جانبي الطريق ، وشرعوا يلقون الينا خبزاً وبطاطا ، لكن القتل كان نصيب الاسرى القلائل الذين حـاولوا التقاط ذلك الطعام . فلم يكن من اولئك الاطفال والنساء الا ان سبقونا الوفا من الامتار ووضعوا كسر الخبز وقطع البطاطا في طريقنـا . فلما مررنا بها ، استطعنا التقاطها دون ان نثير انتبـاه الخفراء . وقد اصابني قطعة بطاطـا تقاسمتها وجـاري ، فشعرت باني لم اذق في حياتي أطيب منها .

وبلغنا اخيراً مكان العمل ، وهو غـابة يراد انشاء المتاريس فيها . فضاعف الالمان رقابتهم علينـا ، واعطوا كلاً منا مجرفة ، لكن من ذا الذي يستطيع ان يبني لعدوه متراساً يتحصن فيه !

في اصيل ذلك النهار اتخذت قراري . خرجت من النفق الذي كنا نحفره ، ودنوت من الحـارس ومجرفتي في يدي ... وقـد لاحظت ان الالمان الآخرين كانوا بعيدين ، وان هذا الرجل هو الوحيد الذي يقوم على حراستنا ، فتمتمت امام الحارس :

– لقد انكسرت مجرفتي ... انظر اليها بنفسك !

وفكرت ، لحظة واحدة ، بانه سيقضي عليّ ان لم استطع صرعه بضربة واحدة . ولا ريب في ان الالماني قرأ تعبيراً مخيفاً في وجهي ، اذ بدرت منه حركة لرفع سير البندقية الرشاشة عن كتفه . ولم يكن بوسعي ان اضربه على رأسه وفوقه قبعة حديدية ، فعاجلته بضربة من المجرفة على وجهه ، وما خانتني قوتي ، فسقط على الارض دون ان يرسل صرخة واحدة .

ها انا ذا أملك بندقية رشاشة وكمية لا بأس بها من الرصاص ! عدوت ، لكني ما لبثت ان شعرت بأنني لن استطيع العدو . فوقفت ، وتنفست ملء رئتي ، وعدت الى الجري بسرعة اقل . كانت الغابة وراء الوادي متكاثفة جداً ، وكنت اريد بلوغ ذلك المكان ... لا استطيع ان اتذكر الآن كم مرة وقعت ونهضت لأقع من جديد ... الا اني كنت ابتعد مع ذلك ، اكثر فأكثر . ولما انسللت بين الادغال المتشابكة مجهداً ، خائر القوى ، سمعت ورائي اصواتاً تتعالى من بعيد ، وطلقات البنادق الرشاشة تترى ، لكنه كان قد اصبح من العسير عليهم ان يعثروا عليّ .

كان الغسق يقترب ، فقلت : اذا استطاع الالمان ان يقتفوا أثري ويحدقوا بي ، فلن أدع لنفسي سوى الرصاصة الاخيرة . وشجعني هذا الخاطر ، فواصلت السير مخففاً سرعتي ، مضاعفاً انتباهي وحذري .

قضيت الليل في الغابة ، وكان ثمة قرية لا تبعد سوى نصف كيلومتر ، لكني خشيت ان اغامر بالذهاب اليها مخافة ان التقي فيها الالمان .

وفي اليوم التالي ، اهتديت الى نفر من الانصار فبقيت بصحبتهم خمسة عشر يوماً استعدت فيها قواي . وقد عاملوني في البدء بشيء من الشك رغم البطاقة الحزبية التي اخرجتها من بطانة معطفي حيث وضعتها وانا في المعسكر . ثم تبدل موقفهم مني حين شرعت اشاركهم في نضالهم الأعداء . وفي تلك الايام طفقت ، للمرة الاولى ، اعدّ الالمان الذين أقتلهم ، وانا حريص منذ ذلك الحين على هذا الحساب ، والرقم يزداد يوماً بعد آخر ويقترب سريعاً من المائة .

وفي كانون الثاني ساعدني الانصار على اجتياز خط الجبهة ، فقضيت في المستشفى شهراً اخرج الطبيب خلاله من كتفي شظية اللغم التي أصابتني يوم أسرت . اما الروماتيزم والامراض الاخرى التي اعترتني في المعسكر ، فسأعنى بمعالجتها بعد انتهاء الحرب . ولما غادرت المستشفى ارسلت الى منزلي ، فقضيت مع اسرتي اسبوعاً واحداً . ولم استطع البقاء هناك اكثر من ذلك ، فان مكاني هنا في الجبهة ، حتى النهاية ! »

لما نهض الملازم غيراسيموف لنوديعي ، قال لي وهو يتأمل اشعة الشمس في منعطف من الغابة :

ــ لقد تعلمنا ان نحارب . تعلمنا ان نبغض ونحب حقاً . ألا ان الحرب لمصهر يرهف جميع العواطف . يحسب بعض الناس ان الحب والبغض ضدان لا يجتمعان . وقد قال الشاعر : « لا يقرن معاً جواد ووعل » . ولكن ها هما قرنا عندنا جنباً لجنب ، وها هما يجران العربة على احسن وجه . اني لأحقد على الالمان الفاشيست

من اجل ما صنعوه بوطني وبشخصي . واني لأحب شعبي بكل جوارحي ولا اريد ان يعاني نير الالمان . ذلك هو حـــافزنا الى القتال بالضراوة التي نحارب بها ... ان هاتين العاطفتين ، المتجسدتين في العمل ، هما اللتان تقودانا الى النصر . ان حب الوطن يعيش في قلوبنا وسيعيش فيها ما دامت تنبض . أما الحقد فاننـا نحمله على رؤوس حرابنـا . اعذرني اذا عبرت عن هـذا المعنى بطريقة معقدة ، فتلك هي فكرتي .

ولأول مرة منذ تعارفنا ، ابتسم الملازم غيراسيموف ابتسامة بسيطة ساحرة : ابتسامة طفل . ولاول مرة ايضاً ، لاحظت ان هذا الملازم الذي ما يزال في حدود الثانية والثلاثين من عمره ، قد اضنته الآلام ولوحت شعره بالمشيب ، لكنه لم يزل قوياً برغمها ، ومتيناً ، كشجرة سنديان .

الغراب

للكاتب الاسباني غابرييل ميرو

كانت ابواب المدرسة ونوافذها مفتحة على مصارعها ، فان فصل الصيف قد بدأ ، والفرصة الشهية قد اقتربت . وكان الاطفال يشاهدون ، من مقاعدهم ، جلال المساء المضيء الصامت ينتشر على الحقول الناضجة ، والسماء تهبط صافية ساجية .

وحول المدرسة القائمة بين اسوار القلاع القديمة في ضاحية القرية ، كانت ترود بضع عنزات من القطعان العائدة من المرعى . وثم حطابون قادمون من السهل محنية ظهورهم تحت حزم خضراء ، يمتزج عطرها باطياب المساء ، في ذلك المرتقى المنير الرحب . وقد الهى التلامذة واثار بينهم ضجة مخنوقة ، دخولُ خفاش طائش الى الغرفة ، وطنينُ نحلة نشيطة ، وفراشتان مرّتا خفيفتين مسرعتين على خارطة اسبانيا والبرتغال . اما معلم المدرسة فما كان يشعر بأي ضجر او ملل .

لقد ولت ساعة الأنصراف منذ وقت غير قصير . ولكن يبدو ان المعلم لم ينتبه الى ذلك ، او نسيه تماماً ، فهو يتحدث ويتحدث دون انقطاع ، والاطفال لا يعيرونه انتباههم ، وانما تذهب افكارهم الى الاحجار التي سيلقونها بعد قليل على اعشاش العصافير ، او يتساءلون ايّ مزراب من مزاريب الكنيسة سيقتلعون .

كان المعلم يلقي على تلاميذه توبيخه اليومي ، زارعاً في قلوبهم بذور التقى والصلاح :

« لماذا تسرقون اعشاش الطيور ؟ لو كنتم تصنعون ذلك مساعدةً لصغار الطيور ، لاعتقادكم انها بحاجة الى ملجأ اكثر راحة ودفئاً من الاعشاش التي تبنيها بين اغصان تلعب بها الريح ، فقد يغفر لكم بعض الشيء . كن هادئاً يا توريغيروزا ... لكنكم تصنعون خلاف ذلك ... انكم تمسكون بالطائر المسكين ، ثم تربطون رجله بخيط ، وتجرونه في الهواء ! أليس كذلك ؟ .. »

واخيراً شرع الاطفال يحركون اقدامهم على ارض الغرفة ، ويسعلون ، ويضربون المناضد بقبضاتهم . ولبثوا على ذلك حتى اذن لهم بالانصراف ، فخرجوا في ضجة صاخبة . ووقف هو في عتبة الغرفة ، يراقبهم وهم يتخطون الانقاض وينتشرون بين البساتين ، وشاهدهم يتسلقون احدى الاشجار ثم يتركونها وينطلقون راكضين ملتفتين بانظارهم نحو المدرسة ، فتمتم :

— يا الهي ، لقد سرقوا عشاً آخر !

جالت عينا المعلم الحزينتان برهة في المناظر المحيطة به التي كانت تنطفىء رويداً رويداً . ثم دخل فاشعل المصباح ، وبدأ يكتب ، مهوّماً متناعساً ، في بحثه عن العروض .

ولم يطل عمله كثيراً ، فقد ارتفع بين المنافذ ، بعد قليل من الوقت ، صوت قفزات شديدة وخفقات اجنحة ، فنفذت عيناه بوله بين طيات العتمة الكثيفة ، وقال ضاحكاً :

— تعالَ ، ايها الصغير المسكين ، تعال .

واخرج من جيبه حفنة من القمح فنثرها على الطاولة :
ـ تعال يا ولدي ارثور ، تعال ... لقد ذهبوا جميعاً .
فهبط الى الارض طير كبير مبسوط الجناحين ، ثم وثب مزهواً مدلاً ، فاذا على يد المعلم المعروفة غراب .

في الصبيحة الساكنة الحارة الزرقاء ، من نهار الخميس المقدس ، في طراوة نيسان المعطار ، نزل المعلم من رابية القرية نحو البرية الرحبة العميقة ، والطبيعة ترفل في حلة من الجمال والصفاء ، والطيبة لا عهد له بها من قبل . وقد هدأ كل شيء ، فلا صوت هناك يسمع ، ولا غصن يهتز ، سوى رؤوس الحور العالية تتمايل بكبرياء .
اجتاز المعلم ساقية متفرعة عن غدير هناك ، ونفذ الى الحقل حيث ترعى الماشية بملء حريتها ، بينما الرعيان الشبان يتحادثون منبطحين على الارض ، وقد وضعوا على مقربة منهم طعامهم مع ادوات العمل التي ينسجون بها معاطفهم وأخراجهم . فحياهم برقة وقال لهم ببساطة شيخ وديع القلب :
ـ ألم تعفوا من العمل في هذا اليوم أيضاً ؟ ألم يؤذن لكم حتى بقليل من الوقت تؤدون فيه واجباتكم الدينية ؟
ـ كلا يا سيد ، ان علينا ، نحن ، واجباً في كل حين ...
ونظر ، فاذا بأحدهم يقذف المعزى بالحجارة حانقاً ، ليعيدها الى المكان المناسب ، فقال :
ـ الا تملكون رأساً واحدة من هذه المعزى ؟
ـ كلا ، ان هذه المعزى كلها لشخص واحد من القرية .

ومرت في تلك الاثناء ، في الافق الازرق ، ثلاثـــة غربان ، وجعلت تحوّم في شبه دائرة فوق المرعى ، فبدا مشهد الطبيعة بريّاً اكثر من قبل ، وكأن السلام الذي يسودها أصبح اكثر عمقاً واكثر صفاء . وقال أحد الرعاة اذ بصر بها :

– ليس من حيوان اكثر خبثاً من الغراب .

– لكل حيوان خبثه وطيبته أيضاً . وفي هذا اليوم يجب ان نرى كل شيء مقدساً .

ورفع أنظاره الى السماء ، بينما صرخ الشاب بعنف :

– ولكن هذه الطيور تهبط على الاراضي المبذورة . انهـــا تعيش مما تسرقه !

كانت الغربان السوداء قد تباعدت ، وبدأت تهبط ببطء . فهرع اثنان من الرعاة وتغلغلا في الدغـل الكثيف . ثم شقت الفضاء حجرة ، وتراكض الرجال وفي أيديهم عصيهم ، فطار اثنان من الغربان الثلاثة ، وارتفعت في الجو صرخـــة ألم ، وهتف صوت قوي نشيط :

– لقد أوقعت واحداً من هذه اللصوص ، ولكن اللعين ما يزال حياً .

وعقبه صوت آخر يقول :

– دعه لي ... لأجهز عليه انا .

وتراكضوا جميعاً .

كان جناحا الطائر محطمين ، وقد انكسر احد مخلبيه ، وانغمس ريشه بمزيج من الوحل والدم والعشب . فاستنكر المعلم الاجهاز

عليه ، ورجاهم ان يهبوه اياه ليعالجه ويحتفظ به ، وعاد الى المدرسة بالغراب المدمّى ، وهو يتحدث اليه كما يتحدث المرء الى صديق مريض ، ضاماً اياه الى صدره ليستشعر الحدب والدفء .

هكذا محض الغراب معلم المدرسة صداقته المخلصة ، وأصبح رفيقاً له في الوحدة التي كان يعيش فيها منذ فقد زوجه واصبح ابنه الوحيد كاهن قرية بعيدة متواضعة . وقد شفي الطائر ، لكنه ظل مهيض الجناح ، محطم المخلب ، مشوهاً ، لا يستطيع التحليق ، ولا يسعه ان يطير من سرير المعلم الى طاولته الا بجهد كبير .

وكان الغراب في أول الأمر يخرج الى الساحة فيلعب مع الاطفال . وقد رضي المعلم عن هذه الصحبة التي نشأت بين غرابه وتلامذته ، بل كانت من صميم طريقته الخاصة في التربية . ففي اعتقاده ان محبة الحيوان ومعاملته بأشفاق تروضان الطفل على كبح شراسته . ولكن الاطفال ما لبثوا حتى شرعوا ينالون الطائر بالأذى ، فبدأ يبغضهم ، وصار اذا ما سمع جلبتهم ، يتسلل الى غرفة المعلم ، ويهبط من نافذتها الى الخرائب القائمة على قمة الهضبة ، ويبقى هناك حتى يأزف موعد الانصراف .

ولقد تردد المعلم كثيراً قبل ان يطلق على صديقه اسماً يدعوه به . وبينما كان جالساً على عتبة منزله ، في يوم أحد من أيام الشتاء ، يتدفأ بأشعة الشمس ، والطائر يتنقل على ركبتيه ، تذكر الشيخ التقي اسطورة قديمة ، واصبح للغراب الكسيح اسماً .

لقد هتف معلم المدرسة باعتزاز :

– سيدعى ارثور تيمناً بغراب آخر مقدس من العهود القديمة .

وقف الأولاد يصرخون جذلين أمام الباب المغلق :

ـ لا مدرسة هذا اليوم ... لا مدرسة هذا اليوم !

ذلك ان ابن المعلم قد عاد ، بعد غياب طال عدة سنوات . وقد ذهب الاب السعيد باكراً لانتظاره . ولما وصل ... لما استعاد الاب ابنه ... لم يشبع من النظر اليه . ولشد ما كان الابن في الواقع جسيماً وجميلاً .

كان الكاهن الشاب طويلاً ، بديناً ، قليل السمرة ، عريض الفكين ، ذا عينين مشتعلتين وشعر كثيف حالك .

ـ وانت ايضاً صحتك جيدة يا ابي ، وان كنت قد استرخيت قليلاً . ولكني سأعيد اليك في هذا الفصل نشاطك السابق ، ببضع نزهات والعاب رياضية ... والصيد ؟ ألا تذهب الى الصيد يا ابتاه ؟

لم يسمع المعلم سؤال ابنه ، لانهما كانا قد بلغا المدرسة ، فتركه وذهب يحث العجوز التي تهيء الطعام على الاسراع .

وبعد ان أكلا ، دخل الابن الى غرفته ليفتح حقيبته ويستريح قليلاً من عناء السفر ، ومضى الاب الى القرية ليعود بالاطفال الذين حسبوا ان العيد سيستمر طوال النهار .

ولما عاد المعلم مع بضعة أطفال ، لم يجد ابنه في المنزل ، فبدأ يلقي درسه على تلامذته ، رغم همسهم وضوضائهم ، ثم سئم القراءة ، فطفق يحدثهم عن فائدة الفضيلة والشفقة :

ـ رأيتكم امس تنتزعون ريش طير كان بين ايديكم . تصوروا ماذا تعانون لو ان احداً خنقكم ...

ارتفع صوت ناعم يقول :

ـ سيدي ، لما رأيتنا ذلك المساء اتهموني انا ، مع اني لست المذنب ، بل هو توريغروزا .

فصرخ غلام آخر :

ـ هذا كذب . انه هو المذنب .

فاعترض الاول قائلاً :

ـ كيف تقول انه كذب ؟

ثم أنذره بصوت خافت انه سيجازيه بعد الانصراف من المدرسة .

وقال المعلم آمراً ، بصوت متعب ، وهو يضرب الطاولة بيده ضربة خفيفة :

ـ كفى ... كفى ... اصمتوا جميعاً .

ولما صمتوا ، ارتفع في الخارج ، في سكون القمة ، طلق ناري . فتمتم المعلم :

ـ وهذه جريمة جديدة من جرائم الانسان !

ثم واصل خطابه . ولكن الغلام تابع دفاعه عن نفسه بحرارة :

ـ اؤكد لك يا سيدي ، انه توريغروزا . ودليل ذلك انه لما ذهبتَ أمسك بالعصفور ووضعه في فم كانيلو ولم يتركه حتى ابتلعه الكلب حياً .

فتمتم الشيخ بألم :

ـ يا للهول ... يا أماه !

وفجأة ملأت الباب قامة سوداء ، ودخل الكاهن الشاب . فندت عن الاب صرخة تفعمها الدهشة والاستغراب :

ـ انت ... تحمل بندقية صيد !

– وهل تعلم ماذا حدث ؟ لقد انفقت ساعات طويلة لم استطع ان اقتل فيها سوى هذا الطير الحقير !

والقى الشاب على الارض بازدراء غراباً ميتاً . فصاح المعلم :

– ارثور ... ولدي ارثور !

واجهش في البكاء .

الجدار

للكاتب الفرنسي جان بول سارتر

دفعوا بنا الى حجرة كبيرة بيضاء ، فأغمضت عينيّ هنيهة لان النور قد آلمها ، ثم رأيت طاولة يجلس وراءها اربعة رجال مدنيين ينظرون في بعض الاوراق . وحُشدنا جميعاً في زاوية الغرفة بانتظار مثولنا امام هؤلاء الرجال . وكان السجينان الواقفان امامي اشقرين مدوري الرأس يشبه احدهما الآخر ، ويخيل الي انهما فرنسيان . وكان اصغرهما فتى عصبياً ما يفتأ يرفع سرواله كأنه يوشك على السقوط .

ودام انتظاري قرابة ثلاث ساعات ، فاحسست فراغاً في رأسي . الا ان الغرفة كانت دافئة ، فوجدت في ذلك بعض المتعة ، بعد ان انقضت علينا اربع وعشرون ساعة ونحن نرتجف من البرد .

كان الحراس يقودون المعتقلين واحداً بعد آخر الى امام الطاولة ، فيستجوبهم الرجال الاربعة . ولم يتعد هذا الاستجواب في اكثر الاحيان سؤالهم عن اسمائهم ومهنهم ، وقد يبدو لاحد المحققين ان يسأل : « هل اشتركت في تخريب الذخائر ؟ » او : « اين كنت في صباح اليوم التاسع من الشهر ؟ وماذا كنت تصنع ؟ » لكنه لم يكن ليصغي هو وزملاؤه الى الجواب ، او لم يكن يبدو عليهم ذلك . كانوا يصمتون برهة ، ثم ينظرون امامهم ، ثم يكتبون على اوراقهم . وقد سألوا توم هل كان يخدم حقاً

في الفرقة الاممية . ولم يكن في وسعه ان ينكر بسبب الاوراق التي وجدت في جيبه . اما جوان فلم يسألوه شيئاً ، لكنهم لما سمعوا اسمه عكفوا على الكتابة وقتاً طويلاً ، فقال :

ــ ان اخي جوز هو المناضل ، وانتم تعلمون انه قد مات . اما انا فلست انتسب الى حزب ما ، ولم اعنَ بالسياسة يوماً .

ولما لم يجيبوا ، استطرد قائلاً :

ــ انني لم أصنع شيئاً ، وليس من الحق ان تدينوني بجرم غيري .

فأسكته احد الحراس واقتاده .

وجاء بعده دوري ، فسألني احد الأربعة :

ــ هل انت بابلو ابيبتا ؟

فأجبت بالأيجاب . فنظر في اوراقه وقال :

ــ اين رامون غريس ؟

ــ لا أعلم .

ــ لقد اخفيته في منزلك من اليوم السادس الى اليوم التاسع من هذا الشهر .

ــ كلا !

فعكف المحققون على الكتابة ، وخرجني الحراس . وكان توم وجوان ينتظران في الرواق بين حارسين ، فسأل توم احدهما :

ــ هل هذا استجواب أم محاكمة ؟

فأجاب الحارس : بل محاكمة !

قال توم : فما تراهم يصنعون بنا ؟

فأجاب الحارس بخشونة : ستبلّغون نص القرار في غرفتكم.

وكانت غرفتنا أحد أقبية المستشفى ، وهو مكان رطب شديد الرطوبة . فلما أعدنا اليه التزم جوان الصمت ، وبدا عليه الخوف ، وقد كان في الواقع أصغر سناً من أن يستطيع قول كلمة . أما توم فكان محدثاً ماهراً يجيد اللغة الأسبانية . وكان ثمة مقعد وحصير ، فجلسنا ننتظر في صمت . ثم قال توم :

– لقد قضي علينا .

فقلت : ذلك هو اعتقادي ايضاً ، لكني اظن انهم لن يصنعوا بهذا الصغير شراً .

قال توم : ليس هناك ما يأخذونه عليه . انه شقيق أحد المناضلين الجمهوريين . هذا كل ما هنالك .

نظرت الى جوان فبدا لي كأنه لا يصغي لما نقول . واستطرد توم :

– هل تعلم ماذا صنعوا في سرقسطة ؟ لقد مددوا الناس على الطريق ومرت سياراتهم الشاحنة فوقهم . ان احد المراكشيين الهاربين من صفوفهم قد اخبرنا بهذا . وهم يصنعون ذلك توفيراً للذخائر كما يقولون .

– لكن هذه الطريقة لن توفر لهم النفط على كل حال .

قلت هذا وانا حانق على توم لأنه يتحدث بهذه الأمور امام جوان .

وكان ضوء النهار يتسلل الى القبو من اربع كوات صغيرة ، ومن ثغرة مدورة في السقف تبدو منها السماء كان اصحاب المستشفى يفرغون منها في القبو الفحم المعد لتدفئة المرضى ثم

يغلقونها بباب خشبي صغير . فلما انفجرت الحرب الاهلية ، اجلي المرضى عن المستشفى وبقي الفحم في القبو ، لا يستفاد منـه ، ومـاء المطر يتسرب اليـه من الثغرة التي نسي الموكلون بها اغلاقها .

صرخ توم فجأة :

— يا لعنة السماء ... ها انا ارتجف من جديد .

ونهض فشرع يقوم ببعض الالعاب الرياضية ، وقميصه ينفرج مع كل حركة عن صدره الابيض الاشقر . ثم استلقى على ظهره واخـذ يحرك ساقيه في الهواء ، فرأيت ردفيه يهتزان . لقد كان كثير الشحم . وقد خطر لي ، وانا اراقبه ، ان بضع رصاصات ستخترق بعد حين وجيز هذا اللحم الطري وكأنها تخترق قالباً من الزبدة . وما كان مثل هـذا الخاطر ليهجس في ذهني لو كان توم ضعيفاً .

لم اكن لأشعر بالبرد ، لكني لم اكن لأحس وجود ذراعي او ساقي . وكان يخيل الي من حـين الى آخر ان شيئاً ما ينقصني ، فأبحث عن سترتي فيما حـولي ثم اذكر انهم قـد استبقوها لديهم . ولما نهض توم عن الارض سألته :

— هل شعرت بالدفء ؟

— كلا ، اني الهث من تعبي فحسب .

وحوالى الساعة الثـامنة مساء ، دخل القبو جندي برتبة عريف يراقبه اثنان من الكتائب ، وهو يمسك بيده قطعة من الورق ، فسأل الحارس :

- ما هي اسماء هؤلاء الثلاثة ؟

- ستينبوك وايبيتا وميربال .

فوضع العريف نظارتيه وحدق في الورقة التي بيده وهو يقول :

- ستينبوك ... ستينبوك ... ها هو ... لقد حكم عليك بالموت ... وستعدم في صباح غد . واعاد النظر في ورقته ثم قال :

- والاثنان الآخران ايضاً .

فقال جوان : هذا غير ممكن ... ليس من الممكن ان يحكم عليّ بالاعدام !

فرمقه العريف دهشاً ثم سأله :

- ما اسمك ؟

- جوان ميربال .

- كيف تقول اذن ان هذا غير ممكن ؟ ان اسمك مدون في الورقة . لقد حكم عليك بالاعدام !

- ولكني لم اصنع شيئاً !

هز العريف كتفيه واتجه نحوي ونحو توم قائلاً :

- هل انتم من الباسك ؟

فأجبناه بالنفي ، فاستطرد :

- قيل لي ان هناك ثلاثة معتقلين من الباسك ، ولكني لن اضيع وقتي في البحث عنهم . من المؤكد انكم لا تريدون كاهنا !

ولما لم نجب ، قال :

- سيأتي طبيب بلجيكي لزيارتكم وقضاء الليل معكم .

ثم حيا تحية عسكرية وخرج .

قال توم : ألم أقل لك ؟

– بلى ، ولكن هذا ظلم بحق الفتى !

قلت ذلك مدفوعاً بفكرة العدل ، وان كنت لا احب الفتى ... فقد كان ذا وجه صغير جداً ، وقد شوه الخوف والألم جميع قسماته . ولم يكن هناك من ضير في ان اخصه بقليل من الشفقة ، سوى ان الشفقة كانت تثير في نفسي القرف ، بل الرعب . ولما سمع جوان جواب العريف لم يقل شيئاً وانما اصبح رمادياً : اصبح وجهه ويداه بلون الرماد ، وجلس يحدق في الارض بعينين مدورتين . وكان توم طيب القلب ، فأمسك بذراعه ، ولكن الفتى تخلص منه بعنف مكشراً عن اسنانه . فقلت له هامساً :

– دعه ، ألا ترى انه غاضب !

فأطاع توم آسفاً ، اذ كان يؤثر ان يعزي هذا الصغير ، وكان من شأن هذه التعزية ان تشغله هو نفسه فلا يفكر في الموت . أما الآن فها هو قد تفرغ لهذه الفكرة ، اذ ليس هنالك شيء آخر يعمله أو يفكر فيه .

فتح الباب ودخل حارسان يتبعهما رجل أشقر يرتدي ثياباً عسكرية بلجيكية حيانا وقال :

– انني طبيب ، ولدي اذن برؤية السجناء في الاوقات العصيبة .

وكان صوته حسن الوقع ، مثيراً للانتباه ، فقلت :

– ماذا أتيت تصنع هنا ؟

– اني أضع نفسي تحت تصرفكم . سأصنع كل ما بوسعي لأخفف وطأة هذه الساعات عليكم .

– لماذا أتيت عندنا دون غيرنا ؟ هناك اشخاص آخرون . المستشفى مكتظ بأمثالنا !

– لقد ارسلوني الى هنا .

قال ذلك بلهجة مبهمة . وحدقت في عينيه فرأيته يضطرب قليلاً ، فقلت :

– انك لم تأت الى هنا بدافع الشفقة . على اني اعرفك ، فقد رأيتك مع الفاشيست في ساحة الثكنة يوم القي القبض عليّ .

وكنت اهم بمتابعة الحديث . الا اني شعرت فجأة بشيء ادهشني : ان وجود هذا الطبيب بيننا في القبو لم يبق يهمني ابداً . وكان من عادتي ان هاجمت رجلاً ان لا اتخلى عن الهجوم . ومع ذلك ، فقد فارقتني الرغبة في الكلام بغتة ، فهززت كتفي واشحت بعيني ، ثم رفعت رأسي بعد قليل فاذا به يرمقني بفضول غريب . وكان الحارسان جالسين على الحصير ، يتلهى بيدرو ، وهو اكثرهما هزالاً ، باللعب باصابعه ، ويحرك الثاني رأسه من حين الى آخر ليطرد عنه النوم .

هززت كتفي ونظرت الى رفيقيّ . كان توم قد احنى رأسه بين يديه ، فلم ار سوى رقبته السمينة البيضاء . اما جوان الصغير فكان غاية في الالم . وكان فاغر الفم وانفه يرتجف ، فاقترب الطبيب منه ، ووضع يده على كتفه كأنه يريد تعزيته ، لكن عينيه كانتا باردتين . ثم رأيت يد البلجيكي تهبط ببطء على ذراع جوان حتى تبلغ قبضة يده ، والفتى يتقبل ذلك دون اكتراث . أمسك الطبيب قبضة جوان بأصابعه ، وتراجع في الوقت نفسه كي

يدير ظهره لي . ولكني انحنيت الى الوراء قليلاً ورأيتـــه يخرج ساعته فينظر فيها هنيهة دون ان يترك قبضة الصغير .

قلت لنفسي حـانقاً : يا له من خبيث ! ليحذر من ان يمس نبضي ، ولئن فعل ذلك لأرسلن قبضتي في شدقه القذر .

لم يقترب مني ، لكني احسست انه ينظر الي . رفعت رأسي وبادلته النظر ، فقال لي :

ـ ألا ترى ان المرء يجمد هنا ؟

وكان وجهه قد اصبح بنفسجي اللون لشدة البرد ، فأجبته :

ـ انني لا أشعر ببرد .

فلم يكف عن النظر اليّ بعين قاسية . وفهمت فجأة ، فرفعت يدي الى وجهي : كنت أنضح عرقاً . كنت أنضح عرقاً في ذلك القبو ، في اوج الشتاء ، امام تلك المجاري من الهواء القـارس . مررت باصابعي بين شعري المبعثر ، ولاحظت في الوقت نفسه ان قميصي كان ندياً لاصقاً بجسدي . كان العرق يسيل من جسمي منذ ساعة وانا لا اشعر به ، لكن هـذا الخنزير البلجيكي كان شاعراً بذلك . لقد رأى قطرات العرق على خديّ ، وفكر في ان مبعث ذلك حالة نفسية استبدّ بها الخوف . وأحس انـــه وحده الذي يتمتع بحالة طبيعية بيننا ، وكان فخوراً بشعوره من دوننا بالبرد . وقد أردت ان انهض فاحطم وجهه . على اني لم اكد اتحرك من موضعي حتى زال خجلي وغضبي معاً ، فتهالكت عـلى المقعد بغير اكتراث .

راق لي ان امسح رقبتي بمنديلي لأني بدأت حس العرق وهو

يتساقط قطرات قطرات من شعري الى نقرتي بشكل مزعج . ثم توقفت عن عملي اذ كان من العبث ان اصنع ذلك ، فالعرق ينسكب باستمرار ومنديلي قد تبلل كله . وكان العرق ينضح ايضاً من ردفي ، وقد التصق سروالي الوطب بالمقعد .

قال جوان فجأة : هل أنت طبيب ؟

فأجاب البلجيكي : أجل !

– هل يتعذب المرء كثيراً ؟

– اوه ! متى ؟.. كلا ، كلا . ان الأمر ينتهي بسرعة .

قال البلجيكي ذلك بلهجة أبوية .

– ولكن ... قيل لي ... ان الامر قد يحتاج الى طلقتين .

– ربما حدث ذلك أحياناً ، اذا لم تصب الطلقة الاولى عضواً حيوياً .

– وحينئذ ينبغي لهم ان يعبئوا البنادق من جديد .

وفكر قليلاً ثم قال في شيء من القنوط :

– اذن ، فالامر يستغرق وقتاً طويلاً !

كان يساوره خوف رهيب من ان يتعذب ، ولا يفكر الا في ذلك . اما انا فلم اكن افكر في شيء من هذا ، اذ لم تكن خشية العذاب هي التي تخيفني .

نهضت وبدأت اسير في القبو ، فارتجف توم وحدقني بنظرة مغيظة . لقد كنت اضايقه بسيري لان حذائيّ كانا يرسلان صوتاً مزعجاً كلما وطأت بهما الارض .

تساءلت وانا انظر اليه : هل اصبح وجهي ترابياً كوجهه ؟

فقد كان العرق ينضح منه ايضاً . وكانت السماء رائعة ، لكن ليس ثمة ضوء يتسلل الى هذه الزاوية المظلمة . وكنت كلما تطلعت الى السماء من الكوة المفتوحة في السقف ، ارى الدب الاكبر فوق رأسي .

بدأ توم يتحدث بصوت خافت . وكان ينبغي له ان يتحدث دائماً كي يشعر بنفسه وبوجوده . واعتقد انه كان يوجه كلامه اليّ ، سوى انه لم يكن يتجه بانظاره نحوي . لا ريب في انه كان يخاف ان يراني بوجهي الرمادي الذي تغطيه قطرات العرق . لقد كان كل منا يشبه الآخر وكأنه مرآة امامه ، فكان يؤثر ، فيما خيل الي ، ان ينظر الى البلجيكي ، الى الرجل الحي بيننا نحن الثلاثة .

قال : هل تفهم انت ؟ انني لا افهم شيئاً !

بدأت انا ايضاً اتحدث بصوت خافت ، وانظر الى البلجيكي . قلت :

– ماذا تعني ؟

فأجاب توم : نحن مقبلون على شيء لا استطيع فهمه .

وكان ثمة رائحة غريبة حوله ، وخيل اليّ اني اكثر احساساً بالرائحة من اي وقت مضى . ولما قال ذلك اجبته ضاحكاً :

– ستفهم كل شيء بعد قليل !

فقال بعناد : ليس الامر واضحاً . اريد ان اكون شجاعاً ، ولكن يجب على الاقل ان اعرف . اسمع ... سيقودوننا الى

الساحة ... حسناً ... ثم يصطف الجنود امامنا . ترى ما هو عددهم ؟

– لا ادري ... خمسة او ثمانية على الاكثر .

– حسناً ، لنقل انهم ثمانية . سيقولون لهم « اطلقوا النار !» فأشاهد البندقيات الثماني مصوبة نحوي ، واعتقد اني سأتمنى حينذاك لو ادخل في الجدار ، فأدفعه بظهري بجميع قواي ، ولكن الجدار سيظل صامداً ، كما يحدث في الاحلام المرعبة . انني استطيع ان اتصور هذا كله . آه لو تعلم الى أيّ مدى استطيع ان اتصوره !

– حسناً . اني لأتصوره أنا ايضاً .

– من المؤكد ان ذلك سيحدث ألماً شنيعاً ، ألماً كابياً . هل تعلم ان الفاشيست يطلقون الرصاص على العينين والفم لتشويه الانسان ؟ اني احس منذ الآن بالجراح التي ستحدثها تلك الطلقات في جسمي . منذ ساعة والالم يقدح رأسي وعنقي . انهـا ليست آلاماً حقيقية بل هي شر من ذلك : انها الالام التي سأشعر بها في صباح الغد . ولكن ماذا بعد ذلك ، ماذا ؟

شرع يحدث نفسه دون ان تفارق عيناه البلجيكي . ولم يكن هذا يصغي اليه . وكنت أعرف ما الذي جاء بهذا الرجل الى هنا : ان ما نفكر فيه لا يهمه البتة ، لكن الذي يهمه مراقبـة اجسامنا ، اجسام تحتضر وهي ما تزال في قيد الحياة .

كان توم يقول : حقاً ان الامر ليجري وكأنه حلم مرعب او كابوس مخيف . يريد المرء ان يفكر في شيء ما ، ويعتقد بأنـه قادر على ذلك ، وأنه سيفهم هذا الامر . لكن هـذا الامر لا

يلبث ان يزلق، ويهرب ، ويسقط في هوة سحيقـــة . اني لأقول لنفسي : لن يكون بعد ذلك شيء ! سوى اني لا افهم معنى هذا القول . هناك لحظات اقترب فيها قليلاً ... ثم يتداعى كل شيء ، فاشرع افكر في الالوان ، في الرصاص ، في الطلقات . أني مادي ، اقسم لك بذلك ، ولم أجن . لكن هنـــاك شيئاً لا افهمه . اني أرى جثتي : ليس ذلك بالامر العسير ، لكني « انا » الذي أراهـا ، واراها بعيني . ان الانسان لم يوجد كي يفكر هكذا يا بابلو .

ـ هل تريد ان استدعي لك كاهنا ؟

لم يجب . وكنت قد لاحظت انه بدأ يميـل الى التنبؤ ، والى مناداتي بأسمي الصغير ، وهو يتحدث بصوت لا حياة فيـه . وما كنت أحب هذا السلوك . وفي الواقع ، اني لم اكن لأشعر بكثير من الودّ نحو توم ، ولم اكن أدري لماذا ينبغي لي ان ابدل عاطفتي نحوه ، لأننا سنموت معاً . لو قضي عليّ ان اموت مع رامون غريس لكان الامر غير ذلك . اما الان ، فانا اشعر بالوحدة وانا بين توم وجوان . ومع هـــذا ، فلعل الامر أفضل هكذا ، اذ لو كنت مع رامون غريس لتعاظم تأثري وحناني . امـــا الآن فأنا قاس ، واريد ان ابقى قاسياً الى النهاية .

اخذ يمضغ الكلمات بضرب من التسلية . لا ريب في انه كان يتحدث كي لا يفكر . ومن المؤكد اني كنت من رأيه ، وكان باستطاعتي ان اقول كل مـــا قاله ، اذ ليس من « الطبيعي » ان نموت . ومنذ شعرت بأني مقبـــل على الموت ، لم يبق ثمة شيء طبيعي في نظري ، لا هذه الكومة من الرماد ، ولا المقعد ، ولا

سْدق بيدرو القذر . لم يكن يروق لي ان افكر في عين الاشياء التي يفكر فيها توم . وكنت اعرف جيداً اننا كنا ، طوال تلك الليلة وسنبقى الى نهايتها ، نفكر في الاشياء نفسها ، وفي وقت واحد ، كما نعرف او نرتجف في آن واحد . نظرت اليه ملياً ، فبدا لي ، لأول مرة ، غريباً : انه يحمل موته على وجهه ! لقد جرحت في كبريائي : منذ اربع وعشرين ساعة ، وانا اعيش الى جانب توم واصغي اليه . كنا نتحادث من قبـــل ، وانا واثق من أنه ليس هناك من شيء مشترك بيننا ، وها اني ارى الآن اننـــا نتشابه كأخوين توأمين ، لا لشيء الا لأننا سنموت معاً .

أمسك توم بيدي وقال دون ان ينظر اليّ :

— بابلو ... اني اسأل نفسي ... اني اسأل نفسي هل يفنى الانسان حقاً !

طفق البلجيكي يدون بعض الملاحظات ، فانشأنا ننظر اليه ، واخذ جوان ينظر اليه معنا . كنا نتطلع اليه جميعاً لانه حي : كانت له حركات رجل حي ومشاغل رجل حي ، وهو يرتجف في القبو كما يرتجف الاحياء وليس مثلنا نحن . كان له جسم يطيعه ، اما نحن فلم نبق نحس اجسامنا . وكان جالساً على فخذيه ، يستطيع التصرف بعضلاته كما يشاء ، ويستطيع ان يفكر في الغد ايضاً ، وكنا نحن الاشباح الثلاثة المحرومين من الدم ننظر اليه كأننا افاع تمتص حياته !

شعرت بالتعب وبالانفعال في آن واحد . واردت ان لا افكر

عما سيحـــدث عند الفجر ، لان هذا التفكير لم يكن ينتهي بي الا الى الفراغ . لكني كنت كلما حاولت التفكير في شيء آخر ارى بنادق مصوّبة اليّ . ولقد عانيت مصرعي اكثر من عشرين مرة . وفي احدى هذه المرات اعتقدت اني صرعت حقاً : يظهر انني اغفيت دقيقة ، فرأيتهم يجرونني نحو الجدار وانا احاول الافلات منهم طالباً الغفران . فاستيقظت مذعوراً وحدقت في البلجيكي خشية ان اكون قد صرخت في غفوتي ، ولكنه كان يفتل شاربيه دون ان يبدو عليه ما يشير الى انه قد انتبه الى عذابي .

وكان في وسعي ان انام لو عمدت الى ذلك ، اذ كنت مجهداً بعد سهر متواصل دام ثمانٍ واربعين ساعة . سوى اني لم اكن اريد ان افقد ساعتين من حيـــاة . وكنت اعلم اني ان رقدت فانهم سيوقظونني عند الفجر ، فاتبعهم مثقلاً بالنعـــاس ، واموت مضعضعاً دون ان ابدي حراكاً . وما كنت لاريد ذلك . لم اكن اريـد ان اموت كحيوان ، بل كنت اريـد ان افهم . ثم انني خشيت ان تطبق عليّ الكوابيس .

نهضت وجعلت اجول في القبو طولاً وعرضـــاً . ولكي استبدل من افكاري افكاراً اخرى ، اخـذت افكر في حيـاتي الماضية ، مستعيداً ذكرياتي كيفما اتفق ، الجميل منهـا والقبيح على السواء ، او ، على الاقل ، تلك التي كنت اسميهـا جميلة او قبيحة فيما مضى من الزمان .

وبغتة خطرت للبلجيكي فكرة رائعة ، فقال :

– يا اصدقائي ، اني اتعهد ، ان سمحت الادارة العسكرية ، بايصال بضع كلمات منكم او ذكريات للاشخـــاص الذين يحبونكم ...

غمغم توم : ليس لي احد !

اما انا فلم اجب .

انتظر توم قليلاً ، ثم قال وهو يحدق بي :

– ألا تريد ان تقول شيئاً لكونشا ؟

فاجبت : كلا .

اني لا احب التبسط في الحديث ، ومع هـذا فقد اخطأت وحدثته في الليلة السابقة عن كونشا ، وما كان ينبغي لي ان افعل . الا انني كنت احبها ، وكنت راضياً في تلك الليلة ان افقد ذراعي بضربة فأس مقابل ان اراها خمس دقائق . ولهذا تكلمت . لقد كانت عاطفتي اقوى مني . اما الآن فليست تساورني اية رغبة في رؤيتها ، وليس لديّ اي شيء اقوله لها ، ولو اتيح لي لما عانقتها وضممتها الى صدري . فانا اكره جسمي لانه اصبح رمادياً ولانه ينضح عرقاً ، ولست واثقاً من انني لن اكره جسمها ايضاً . لا ريب في ان كونشا ستبكي عندما يبلغها نبأ موتي ، ولن تتذوق الحياة طوال شهور عديـدة . ولكن ، مع ذلك ، ان الذي سيموت هو انا .

شرعت افكر في عينيها الجميلتين العذبتين لما كانت تنظر بها الي ، فاحس كأن ثمة شيئاً ينتقل الي منها . على اني ايقنت بان ذلك قد انتهى ، فلو نظرت الي الآن لبقيت نظراتها في عينيها ولم تصل

الي : لقد كنت وحيداً .

وكان توم ايضاً وحيداً ، لكن على الغرار نفسه . وكان ممتطياً حينذاك المقعد ، كمن يمتطي جواداً ، وهو ينظر اليـــه مبتسماً ، ثم قرّب يده فلمس خشب المقعد بحذر ، كأنه يخشى ان يكسر شيئاً ، وسحبها بسرعة مرتعشاً . فقلت لنفسي : ما كنت لأتلهى بلمس المقعد لو كنت انا توم . ومع ذلك ، فقد بدأت الاشياء تبدو لي بصورة غريبة : اصبحت اقل وضوحاً وكثافة مما كانت عليه من قبل . وكان يكفي ان ارى المقعد او المصباح أو كومة الرماد ، حتى اشعر بانني على وشك الموت . ومؤكد انني لم اكن استطيع ان افكر بموتي بوضوح ، سوى اني كنت اراه في كل مكان ، وعلى جميع الاشياء ، وفي هذا الوضع الذي صارت اليه الاشياء جميعاً اذ تراجعت ووقفت راصدة عن بعد ، بانتباه ، كأنها اناس يتهامسون حول سرير محتضر . ان الشيء الذي كان يلمسه توم على المقعد هو موته .

لو انبئت ، وانا في الحالة التي كنت اعانيها ، اني استطيع العودة الى منزلي باطمئنان ، وان حياتي قد سلمت ، لاستقبلت هذا النبأ بغير احتفال . فان انتظار بضع ساعـــات او انتظار بضعة شهور سيـان لدى من فقد وهم الخلود . لم ابق حريصاً على شيء ، وغدوت من ثم هادئاً ، ولكنه هدؤ مخيف بسبب جسمي : فبعيني هذا الجسم كنت ارى ، وباذنيه كنت اسمع ، ومع ذلك فان هذا الجسم ليس انا . انه يعرق ، ويرتجف بمفرده ولم ابق

اعرفه البتة ، وانا مرغم على ان المسه وان اراه كي اعرف كيف هو ، كأنه جسم شخص آخر . وكنت اذا ما شعرت به بعض الاحيان ، كان شعوري هـــذا مجرد احساس بانزلاق او تهور كهبوط الطائرة عمودياً ، او مجرد احساس بخفقـــان شديد في القلب . على ان هذا الشعور لم يكن ليبعثني على الاطمئنان ، لان كل ما كان يصدر عن جسمي كان له طابع قذر حقير . وفي اغلب الاحيان كان هذا الجسم يصمت ، ويقف ساكناً ، فافقد كل احساس الا احساسي بشيء من الثقل ، شيء وسخ لاصق بي ، كأني معلق بقملة كبيرة الحجم .

اخرج الطبيب ساعته ونظر فيها وقال :

ــ الساعة الآن الثالثة والنصف .

يا له من قذر ... لقد صنع ذلك عمداً .

لم نكن نحن قد شعرنا بمضي الوقت ، فالليل يحيط بنا مظلما غامضاً ، بل انني لم أبق اذكر انه ابتـدأ . فلما قال البلجيكي ذلك ، وثب توم في الهواء ، وجعل جوان يصرخ ، لاويـــاً يديه ، متوسلًا :

ــ لا اريد ان اموت ، لا اريد ان اموت .

كان ينتحب ، وقد أيقنت انـــه لا يفكر في الموت ، ولكنه يشفق على نفسه منه .

وساورتني انا ، لحظة واحدة ، لحظة واحـــدة فقط ، رغبة في البكاء ... اردت انا ايضاً ان ابكي شفقة على نفسي . ولكن الذي حدث هو العكس تمامـــاً ، فقد حدجت الصغير ببصري ، ورأيت

كتفيه الهزيلتين الناصبتين ، فأحسست انني لم أبق انساناً ، ولم ابق استطيع الاشفاق على نفسي او على الآخرين ، وانما اردت ان اموت بالحاح .

نهض توم فجلس تحت الكوة المفتوحة في سقف الغرفة ، وأخذ ينتظر ضوء النهار . اما أنا فكنت قد نصبت لنفسي هدفاً . لقد رغبت في الموت ولم أبق افكر الا بهذه الرغبة . ولكن منذ حدد الطبيب الوقت ، بدأت اشعر بالعرق ينصبب مني قطرة فقطرة .

وكان الليل ما يزال مخيماً لما سمعت صوت توم يقول :

ـ هل تسمعهم ؟

ـ أجل .

كان الجنود يسيرون في الساحة ...

وبعد قليل اصبح القبو رمادياً كله ، وسمعنا طلقات نارية بعيدة . قال توم : لقد بدأوا . ويبدو انهم يقومون بذلك في الساحة الخلفية .

وطلب من الطبيب ان يعطيه لفافة تبغ . أما انا فلم تكن بي رغبة في اللفائف او في الكحول .

ولم ينقطع اطلاق النار بعد ذلك ، فقال توم :

ـ أتسمع ؟

وأراد ان يضيف شيئاً آخر ، لكنه التزم الصمت ونظر الى الباب ، فاذا بالباب يفتح ويدخل ضابط واربعة جنود ، فوقعت اللفافة من بين اصابع توم . ونادى الضابط :

ـ ستينبوك !

فلم يجب توم ، لكن الطبيب أشار اليه ، وتابع الضابط :

– جوان ميربال !

فقال البلجيكي : انه ذلك الجالس هناك .

امر الضابط جوان بالوقوف ، لكنه لم يتحرك ، فأمسك بــه جنديان من ابطيه وانهضاه ، الا انهما ما كادا يتخليـان عنه حتى تداعى الى الارض . فتردد الجنديان لحظة ، وقال الضابط :

– انـــه ليس اول من يتهدم هكذا . يجب ان تحملاه انتما الاثنان ، وسنرى فيما بعد ما نحن صانعون .

واتجه نحو توم فأمره بمغادرة الغرفة ، فسار بين الجنديين الآخرين ، بينما الاولان يحملان جوان من ابطيه وقدميه ، ولم يكن مغمى عليه ، بل كانت عيناه مفتوحتين والدموع تسيل منهما على خديه .
ولما اردت الخروج بدوري اوقفني الضابط قائلاً :

– هل انت ايبيتا ؟

– أجل .

– انتظر هنا . ستدعى بعد قليل .

بعد ساعة جاء بعض الجنود لاستدعائي ، وقادوني الى حجرة في الطابق الاول ، خيل اليّ ان حرارتها مرهقـة لا تطاق . وكان هناك ضابطان يستويان على مقعدين وثيرين وهما يدخـــنان ، وعلى ركبتيهما بعض الاوراق .

– هل أنت ايبيتا ؟

– نعم .

– اين رامون غريس ؟

– لا أعلم .

كان الشخص الذي يستجوبني قصيراً بديناً ذا عينين قاسيتين تعلوهما نظارتان ، فقال لي :

– اقترب .

ولما دنوت منه بادرني بقوله :

– في وسعك ان تشتري حياتك بحياته . اننا نطلق سراحك اذا اخبرتنا اين هو .

خطر لي ان هذين الرجلين العسكريين اللذين ينتعلان الجزمات ويقبض كل منهما على سوط من جلد ، سيموتان ، بعدي قليلاً ، ولكن ليس بعدي كثيراً ، ومع ذلك فهما يهتمان بالبحث عن أسماء بعض الاشخاص في اوراقهما ، وبملاحقة اشخاص آخرين لسجنهم أو لقتلهم ، ولهما آراء غريبة في مستقبل اسبانيـــا ومسائل اخرى . وبدت لي مشاغلهما الحقيرة مثيرة وكريهـــة ، وتمتمت في سري : «يستحيل عليّ ان اضع نفسي في موضعهما» ، او خيل اليّ انهما مجنونان لا ريب في جنونهما .

كان الرجل القصير البدين ما يفتأ يحدجني ببصره ، وهو يضرب جزمته بسوطه ، ولاحظت ان جميع حركاته كانت مصطنعة ومقصودة لاعطائه هيئة وحش مفترس .

– اذن ؟ هل فهمت ؟

– انني لا أعرف اين رامون غريس ، كنت احسب انه في مدريد .

رفع الضابط الثاني يده الشاحبة بغير مبالاة . ان هذه اللامبالاة مقصودة ايضاً . لقد كنت ادرك جميع حيلها ، وأدهش من وجود اناس يشغلون انفسهم بهذه الصغائر .

قال لي الضابط الثاني بتمهل :

– لديك ربع ساعة تفكر فيها . خذوه الى مخزن الثياب وعودوا به بعد ربع ساعة ، فاذا أصر على الانكار يعدم فوراً .

كانوا يعرفون ماذا يصنعون : لقد قضيت الليل تحت وطأة الانتظار ، ثم جعلوني أنتظر ساعة اخرى في القبو بينما كانوا يعدمون توم وجوان . والآن يرسلونني الى مخزن الثياب لأنتظر ايضاً . لا ريب في أنهم قد دبروا خطتهم هذه منذ المساء ، قائلين ان الاعصاب تنتهك بهذه الطريقة ، فيتسلمونني محطماً ذليلاً .

ولكنهم كانوا مخطئين .

جلست في مخزن الثياب على طاولة صغيرة ، وطفقت افكر . ولم افكر في اقتراحهم طبعاً . والمحقق اني كنت أعرف اين رامون غريس ، فهو مختبىء عند أبناء عمه على بعد اربعة كيلو مترات من المدينة . وكنت واثقاً من انني لن أدلهم على مخبئه . كان ذلك مقرراً لدي نهائيـــاً ولا يشغلني التفكير فيه . الا أني أردت ان افهم حقيقة الاسباب التي تحملني على انتهاج هذا المسلك . لقد كنت افضل الموت على ان اسلم غريس ، فلماذا ؟ انني لم ابق احب رامون غريس ، فان صداقتي له قد ماتت قبل الفجر بقليل ، لما مات حبي لكونشا وتلاشت رغبتي في الحياة . لا شك في اني كنت ما ازال احترمه فهو رجل صلب . سوى ان ذلك لم يكن

سبباً كافياً لأن اموت مكانه ، فان حياته ليست اكثر قيمة من حياتي ، بل اني لم ابق ارى لأية حياةٍ كانت قيمةً ما . سيوضع رجل امام جدار ، ويطلق عليه الرصاص حتى يموت ، ولئن يكن هذا الرجل أنا أو غريس او شخصاً آخر ، فالأمر سواء . كنت اعرف جيداً ان رامون غريس اكثر مني افادة لقضية اسبانيا ، على اني ما كنت لاحسب انه قد بقيت عندي لهـذا الامر ايضاً اهمية كبرى . ومع ذلك ، فان في وسعي ان انقــذ حياتي اذا سلمته ، ولكني آبى ان اصنع ذلك ! لقـد بدا لي الامر مضحكاً وتصورت انـــه عناد محض ، وتساءلت أينبغي للمرء ان يكون عنيداً هكذا ؟ وغمرتني غبطة غريبة .

جاء الجنود وأعادوني عند الضابطين ، فقال القصير البدين منهما :

ـ والآن قل ، هل فكرت في الامر جيداً ؟

كنت انظر اليهما بفضول كما ينظر المرء الى حشرات نادرة الوجود فقلت لهما :

ـ انا اعرف اين هو . انه يختبىء في المقبرة ، او في احــد الاقبية ، أو في كوخ حفاري القبور .

قلت ذلك لأضحك منهما . فقد أردت ان اراهما ينهضان ، فيشدان جزمتيهما ، ويصدران الاوامر بهيئة جدية حازمة . واذا بهما يثبان واقفين على اقدامهما ، ويصرخ القصير البدين بصاحبه :

ـ هيا بنـا الى هناك . اطلب يا مولز خمسة عشر نفراً من الليوتنان لوبز .

ثم اتجه نحوي قائلاً :

– اذا كنت قد قلت الحقيقة فسأبر بوعدي لك ، اما اذا كنت قد هزأت بنا فالويل لك .

ذهبا في جلبة عظيمـــة ، وبقيت انتظر وادعـاً في حراسة الكتائبيين . وكنت ابتسم من وقت لآخر ، اذ أتصورهما وهما جادان في عملهما ، ثم افكر في الخيبة التي تنتظرهما ، ومـــا سيكون لهـا من أثر في نفسيهما . كنت مغتبطـاً لشعوري بأني قمت معهما بعمل خبيث .

وبعد نصف ساعة عاد الضابط القصير البدين بمفرده ، فأيقنت بأنه قادم لأعطاء الأمر باعدامي . ولكنه نظر اليّ دون اكتراث كبير ، وقال للكتائبيين الذين يحرسونني :

– خذوه الى الساحة الكبرى مـع الآخرين ، فـان المحكمة ستنظر في أمره بعد الانتهاء من المناورات العسكرية .

خيل اليّ اني لم أفهم ، فسألته :

– اذن ... لن تعدموني !

– ليس الآن على كل حال . ومهما يكن ، فان الامر ليس متعلقاً بي .

فازداد الامر غموضاً لدي ، وقلت :

– ولكن ... لماذا ؟

فهز كتفيه ، واسرع الحرس فقادوني الى الفناء .

وعند المساء ، قاد الجنود الى الساحة بضعة عشر معتقـــلاً جديداً عرفت منهم غارسيا الخباز ، فهتف بي :

ـ هذا انت ! ما كنت احسب اني سأراك في قيد الحياة

ـ لقد قضوا باعدامي ، ثم بدلوا رأيهم ، ولا ادري لماذا !

ـ اما انا فقد اوقفوني في الساعة الثانية من هذا النهار .

ولم يكن غارسيا ليعنى بالسياسة ، فسألته عن سبب توقيفه ، فاجاب :

ـ لا ادري . انهم يعتقلون جميع الذين لا يفكرون مثلهم .

ثم همس في اذني :

ـ لقد قتلوا رامون غريس .

فارتجفت ، وسألته :

ـ متى ؟

فأجاب :

ـ هذا الصباح . لقد غادر بيت ابن عمه لأنهم عرفوا بوجوده هناك . وكان ثمة كثيرون يرغبون في اخفائه لديهم ، ولكنه لم يشأ ان يختبيء عند واحد منهم ، وقال لهم : « لو كان بابلو ايبيتا طليقاً لاختبأت عنده ، اما الآن فاني سأختبيء في المقبرة . »

فصرخت : في المقبرة ؟

فاستطرد : اجل . وقد ذهبوا الى هناك هذا الصباح ، وكان مختبئاً في كوخ حفاري القبور ، فأطلق عليهم النار فأردوه قتيلاً .

في المقبرة !

بدأ كل شيء يدور أمامي ، ووجدتني جالساً على الارض أضحك بقوة حتى لتنهمر الدموع من عيني .

عندما تنطفىء الحياة

للكاتب الفنلندي فرانز اميل سيلامبا

كان ذلك في صباح باكر من اواخر حزيران ... الصيف في ذروة مجده ، والشمس تغدق نورها الوهاج على البسيطة وقد اوشك موسم الحصاد على الانتهاء . وكانت الاشياء ، التي ظلت على حالها طوال السنين ، تبدو في ذلك اليوم ، من خلال اشجار الخوخ ، حية جديدة ، كأنها تريد ان تبعث في القلوب ، مرة اخرى ، حب العمل المثمر . والنهار ، ذلك الوجه العريق الذي ما يفتأ يتلفت ويتألق منذ الأبد ، وسيظل كذلك الى الازل ، ينهض من جديد ليسيطر على الحياة ، على الحياة والموت .

عقربا الساعة ، في الحجرة الرحيبة المضيئة ، يقتربان من الرابعة ، والسكون عميق شامل لا تعكره الا انفاس بطيئـــة تتردد في زاويتي الغرفة ...

كان صاحب المنزل يرقد الى جانب الباب الى اليمين ، منقبضاً تحت الغطاء بهيئته الصارمة ، ووجهه الذي عاثت فيه السنون . والنافذة تنشر فوق رأسه الواحها الزجاجية الستة ، واواني الزهر تجثم على حافتها الى جانب النظارات والكتاب المقدس اللذين يضارعان في القدم صاحبي المنزل ، ويبدوان كأنهما يلتمسان الدفء في هذا المكان بعينه منذ احقاب بعيدة . وفي الزاوية المظلمة من الغرفة ، يرتعش سرير الام الهزيل برهبة . ويبدو جو الكوخ الحقير

كأنه مضمخ بعطر عتيق ما تزال فيه بقية من شذا ينفذ الى الجدران وشبكة النافذة وغيرها من الاشياء ، من خلال شقوقها وصدوعها . وكان المنزل ريفياً أصيلا ، أشبه بتلك المنازل المختارة التي يصطفيها أعلام الرسم مادة لفنهم الجميل .

أفاقت الام أولاً ، ونهضت من فراشها دون ان تنظر الى الاب كي ترى هل افاق هو ايضاً ام ما يزال يغط في نومه ، اذ كانت تعرف عادته في الاستسلام الى غفوة الصباح ، فهما يعيشان معاً منذ اربعين عاماً ، ومواعيد نومهما ويقظتهما لم تتغير .

بدأت المرأة عملها المنزلي ، فملأت ابريق القهوة ماءً ووضعته على الموقد واشعلت من تحته النار ، وامتدت يدها الى طاحونة البن بحركة ابة آلية فأخذتها من مكانها القديم الخاص ومضت تطحن . فلما انتهت من عملها ذاك ، انشأت ترقب غليان الماء ، مصيخة بسمعها الى صفير النار العذب ، ومتطلعة الى ضوء النار وهو يخبو كلما ارتفع النهار أو اتضح .

انه لجدير بأن يتتبع المرء هذه الحركة المنظمة التي تسبق تناول الافطار وتعقبه ، اذ يكفي ان يراقب هذا العمل الرتيب الذي يتمثل كل يوم منذ طوال السنين ، في ساعة معينة وطريقة خاصة ، حتى تتكون لديه فكرة كاملة عن ذينك الفلاحين العجوزين .

اجل ، لقد مر عليهما ، في قديم الزمان ، وقت كان لحياتهما فيه وجه آخر ، وكانت آمالهما مقبلة زاهرة ، حتى ظنا انه لن يكون لنعيم الدهر نهاية . وفي ذلك الزمن السحيق ، حينما كانا بعيدين عن أعين الشقاء ، أنعمت عليهما الحياة بمولود كان لهما مدى أعوام قبلة

الرجاء وينبوع الهناء . وكثيراً ما كان ذلك الولد يروي لأبيه احلامه كأنها امور واقعة ، والاب مضطجع يصغي اليه ، وعيناه ضائعتان في الافق البعيد ، ودماغه يفكر في عمل النهار المقبل .

في ذلك الوقت المقدس تناول الابوان يوماً طعامهما ، وعمدا ، لأول مرة ، الى التقتير فيه ، ثم غادرا المسكن بعد ان تركا ازاء ابنهما قطعة من جيد الخبز وكأساً من القهوة كي يأكلهما متى استيقظ في غيابها ...

ولكن اي انقلاب بدأ في حياتهما منذ ذلك النهار ؟ لقد مرت عليهما بعد ذلك خمس عشرة سنة وهما يستيقظان في كل صباح ، فلا يجدان الولد العزيز راقداً في سريره على مقربة منهما . منذ ذلك اليوم ، لم يبق للحياة لونها الجميل ، وغدت ساعات الصباح تمر كل نهار بطيئة متشابهة فادحة .

ولم يقتصر الامر على هذا . فهناك امر آخر كان يوجه اليهما رسائله التي تنبىء باقترابه المحتوم . وبالرغم من ان السنين قد أجهدت دماغيهما ، فقد كانا يتقبلان تلك الرسائل صابرين ، طيعين ، ويستوعبان ما تنطوي عليه من مغزى مفجع مشؤوم . ولم يكن ذلك الامر الخفي الا الموت الذي يرود حولهما ، والنهاية التي تنتظرهما ، رغم ان الصباح ما يزال ينبثق كعادته ويتألق في الآفاق .

تثاءبت الام ، ونظرت ، بعينين أثقلهما النوم الطويل ، الى اناء النبات على المائدة ، فتجلى في تلك النظرة الوانية ضميرها كله والالام التي تفدحه وتهيمن عليه .

على ان فكرة واحدة أمضتها واستوقفتها ، ولم تكن لتستطيع

ان تقلت من نيرها لحظة واحدة : لقد تداعى الاب ولم يبق في وسعها الاعتماد عليه ! وثمة طائف من القلق كان يعتري الاب نفسه . فقد احتاجا في الخريف الماضي الى الحطب ، وانتظرا سقوط الثلج كي يذهبا الى الغابة فينقلان منها ما يحتاجان اليه . وما يفتأ الاب يتكلم عن هذا الامر ، ويخشى ان يحل بهما هذه السنة ما حلّ بهما في العام السابق . وهو يعقد على هذه الامور العارضة أهمية كبرى ، كأنه نسي ولدهما كل النسيان .

لقد جاء الولد الى زيارتهما منذ اعوام ثلاثة . فهو موظف في احد المكاتب ، ويبدو أشبه ببورجوازي صغير قانع بحياته . على انه قد تراءى لهما في زيارته الآخيرة جميلاً وغريباً ، حتى ان الام التي لم تدرك عقليته تمام الادراك ، شعرت بالضيق ، واحست انها فقدته ، ولم تستطع ان تخنق في صدرها ذلك الشعور بالراحة والسعادة لما غادرهما لكي لا يعود ابداً ولا يصلها بأخباره ، سوى رسالة وصلتهما في احدى اماسي الربيع الفارط من زوجته التي لا يعرفانها ، تنبئهما بأن ولدهما قد دافع عن بلاده دفاعاً بطولياً مجيداً ، وانه سقط صريعاً في ساحة القتال .

وما تفتأ الام ، منذ ذلك الحين ، تمسح بضع قطرات من الدمع تبدر الى عينيها كلما ذكرته ، وتلقي في بعض الاحيان نظرات مبهمة الى رأس الاب الاصلع كأنها تنشد منه العون ، والاب يغط بدعة في نومه .

انها لا تستطيع وليس في طاقتها أن تفسر ما حدث ، وان تدرك جلية الامر . فقد كان لها ولد في ماضي الزمان ، وليس لها

اليوم ولد . هـــذا هو الامر الذي يحيرهـا ، ولا تستطيع له تأويلا ، حتى ليكاد تفكيرها فيـه ان يقودهـا الى الجنون المطبق . الوطن مـا هو ؟ انهم لا يعرفون هنـا ، في هذه البقعـة النائية المنعزلة ، ما تعبر عنه هذه الكلمة ، بل انهم لن يفهموها ابداً .

على ان الام كانت تفهم جيداً انها بحاجة الى الحطب ، وان الملح قد نفد ، وان الاب العجوز سيفتقد قهوته يوماً فلا يجدها ، وان بؤسها بتضاعف يومـــاً بعد آخر ، وان الموت ، الذي بدت طلائعه في جو المنزل ، يتربص بها ، ويرقب فريسته بصبر عنيد .

بدر الدمع الى عيني العجوز الحمراوين مرة اخرى . انها تقاسي من المتاعب ما لا تطيق ، فمتى وكيف يأتي الموت ؟ وأي جـار سيرضى باعارة حصانه لنقل الجثتين الباليتين الى المقبرة ؟ وما عساه يكون ذلك الكفن الذي سيتصدق به الناس لتسجيتها بـه قبل وضعها في التابوت ؟

نضجت القهوة وأسرعت الام بوضع الابريق على المائدة ليبترد قليلا. واتجهت ، في انتظار ذلك ، نحو المقعد الهزاز ، بين سرير الزوج والنافذة ، ووضعت نظارتيها ، وفتحت الدرج فأخرجت منه بطاقة الميلاد التي ارسلها الابن يوماً ، وقرأتها بصوت خفيض .

كانت على يقين من ان الكهل قد افاق من نومه وأنه يسمع قراءتها ، وكانت تعرف ايضاً ما يمر في ذهنه البطيء ، وتثق من انه يشهد هو الآخر الاطياف التي تمر في مخيلتها . وكان ذلك يعزيها كثيراً .

ولما انتهت من قراءتها ، نهض الفلاح من سريره ، ثم شربا قهوة الصباح ، وعادت حلقة البؤس تدور وتدور ...

ولكن بالرغم من ان مواردهما كانت هزيلة محدودة ، فان حياتهما لم تكن ، حتى تلك السنة ، من الضيق بحيث لا تحتمل . ولم يلتمس الشيخ يوماً مساعدة احد سكان المقاطعة . وكانا يملكان في بعض الاحيان عنزة او عنزتين ، وربما اعطتهما حصتها من غلة الارض فوق حاجتهما من البطاطا ، حتى ادهش ذلك جميع المجاورين.

وكان صاحب الارض يحيطهما بشيء من العناية ، ويقدم لهما من العشب ما يكفي لغذاء العنزتين ... يصنع ذلك بلباقة ومحبة ، فلا يستشعران غضاضة ، ولا يبدو عمله لهما نوعاً من الصدقة . وكان الكهل لا يقعد بدوره عن مساعدة الملاك في حصد العلف من الحقل ، فينفق كل عام شهراً طويلاً في هذا العمل المجهد ، ولكنه لا يشعر بالملل والتعب ، بل يواصل نشاطه في لذة عظيمة حتى يمتلىء مخزن الملاك بالعلف .

على ان الامر قد جرى في الصيف الماضي على خلاف ذلك . كان الشيخ يمضي في عمله بخطى متثاقلة ونفس ملول ، ويخيل اليه ان عدواً خفياً يترصده ويتبعه أينما اتجه ، وان طائفاً مشؤوماً يروعه كما لو كان طائر رمادي قد جثم على كتفه ولن يبرحه ابداً . فاذا ما عثرت خطاه ، او وقع على الارض ، او ادركه التعب ، خيل اليه ان ذلك العدو يتراءى فجأة لينظر الى مظاهر عجزه بعينين تطفحان فرحاً وشماتة . وقد حاول عبثاً ان يخفي مخاوفه وأوهامه عن زوجته ، فكتم عنها كل شيء ، ولكن ذلك

الدخيل كان ماثلاً امامه دائماً ، يقهقه بخبث ويكشف للأم عن حقيقة الامر .

تراءى له الصيف ذلك العـــام بطيئاً وطويلا ، ولم يفكر في الشتاء المقبل خلافاً لعادته في السنين السالفة . فثمة فراغ رهيب كان يشيع في رأسه يوماً بعد آخر ، يمنعـــه من التفكير في اي مشروع يتجاوز نطاق اليوم الجـاري . وكان يناضل نفسه في يأس موجع ، مجرباً ان يجابـه ذهنه بخطأه حين يطلق لخياله العنان فيقوده كما يشاء ، ولكنه لا يستطيع رغم ذلك ان يتخلص من الاعتقاد الجازم بأن حصد العشب هـذا العام ليس سوى ضرب من العبث لا طائـل وراءه ، مع ان العنزة ما تزال تثغو في الحظيرة كشأنها في الايام الماضية .

استيقظ الاب ذات صباح قبل زوجته . وكانت الام موقنـة بأنه يشعر بألمها ، ويعرف انـه لم تبق للحياة اية قيمة في نظرها منذ مات ولدهما .

والواقع ان الرجل كان يفكر في زوجته قائـلاً : « ان مت فانها ستبقى وحيدة في هذا العالم ! وما تراها فاعلة اذ تفقد السبب الاخير الذي يصلها بالحياة ؟ اني لأتساءل : أيتوفر لها من الشجاعة ما يحثها على صنع القهوة كل صباح ؟ » ثم تتلاشى هـذه الفكرة ، وتجري في خاطر الرجل اسئلة حائرة اخرى ، فيقول : « ماذا نصنع للحصول على حاجاتنا ؟ لم يبق لدينا ما نعيش به . »

على انه لم يلبث ان قال : « لقد استقام الجو على الجـــلاء ، فينبغي لي ان ابادر الى الحقل ، وليس في البيت مـــا يستدعي

بقائي فيه . ان قوتي ستخذلني ما في ذلك ريب ! ولكن ما العمل ؟ ان العشب لا يمكن ان ينتظر ، فاما ان اسرع الى حصاده او يفوت الموعد ... يا للشقاء ! »

كان ذهن الشيخ يثب دائماً الى المستقبل . اما اليوم فهو ما يفتأ يتلفت الى الوراء ، وها هو يزفر زفرة عميقة كأنه لا يزال يغط في النوم ، ويغرق في ذكريات الماضي السعيد ، فيشعر بأنه قد عاد الى الحياة ، ويسري المرح في أعطافه ، حتى انه ليطقطق لسانه في فمه ، ويتخذ في سريره جلسة مريحة .

ولكن تلك الموجة الغامرة من الحياة لم تكن الا سحابة لم تلبث ان تبددت حين وضعت الام ابريق القهوة على المائدة ، واخرجت الكتاب المقدس ، وأنشأت تقرأ بعض المزامير . فقد شعر الرجل بألم مريع يعيث في أعماقه . أيمكن ان يكون الله قد أصبح غريباً لديه ؟ انه يصغي بغير اكتراث الى صوتها وهي تقرأ في الكتاب المقدس ، ويلتمس عبثاً تلك النشوة التي كانت تستولي عليه من قبل . فهو لا يشعر الا بالموت يدنو منه شرهاً جائعاً ... أفيأتي عليه في هذا النهار ، أم يتركه للغد ، أم يدعه الى يوم قريب آخر ؟ انه ليتمنى ان يجد في كلمات الله المعزية ملاذاً ، فيبدو له ذلك ضرباً من المستحيل ، لأن كل كلمة تسقط من فم الام ، كانت تزيح ستر الخفاء اكثر من قبل عن ذلك العدو الغريب الملازم الذي يبدو اليوم في بأسه المخيف .

ومع ذلك ، فقد كان يشعر ، في سالف الايام ، بأن قراءة الكتاب المقدس في الصباح الباكر هي اسعد لحظات النهار

وأمتعها جميعاً . وكان الكلام الالهي ينسجم كل الانسجام مع الشمس الصاعدة والعمل الذي يدعوه الى الحقل كما يدعو الصديق صديقه . وكان العالم بأسره لا يعرف اموراً تنسجم وتتجاوب كما تنسجم تلك الاشياء العظيمة وتتجاوب في نفسه ، لا سيما يوم تنـــاول القربان المقدس .

تضاعف الم الاب حين ذكر انهما لم يشهدا في ذلك الصيف عيد الجسد . لقد وعدهما احد المجاورين لها باعارتهما حصاناً يذهبان عليه الى الكنيسة ، فلما ذهب الاب لأحضار الدابة قال له الرجل ان زوجته قد ارسلت الحيوانات الى المرعى على غير علم منه . ولما عاد الى المنزل واعلم زوجته بذلك ، أخذت تبكي وهي تنضو ثوبها الابيض المثقل بالذكريات . ولم يحاولا الذهاب الى القرية مشياً على الاقـــدام ، رغم رغبتهما الملحة ، لان قواهما لم تبق تساعدهما على اجتياز تلك المسافة الشاسعة .

هكذا تداعى ذلك الامل الجميل ... ولكن من حسن الحظ ان الغد هو موعد العيد المقبل ، وهما يستطيعان ان يعتمدا هذه المرة على حصان الجار .

أقبل الرجل على تناول طعام الصباح بعيد الطرف ، مشغول الخـاطر . وكانت الشمس تبدو في الافق بطيئة مشتعلة ، فينبىء ضوءها المتوهج بأن النهار سيكون ثقيـل الجو ، فادح الحر ، والاعشاب التي يجب على الاب ان يقطفها تنتصب سمراء ناضجة . ففكر في ان محصول هــذا العام سيزيد على محصول الاعوام السابقة أضعاف المرات ...

تأمل الفلاح العجوز جلال النهار ملياً ، ثم خرج الى الطريق ، ولم يلبث ان انطلق في عرض الحقل والمنجل في احـدى يديه ، ويده الاخرى تعتمد على عصا غليظة تقود خطاه المبعثرة .

وكانت حرارة الشمس تشتد شيئاً فشيئاً ، فتلسع رقبته اليابسة التي تشبه الرق العتيق ، ويسطع ضوءها بقوة ، فيكشف لعينيـــه الكليلتين كنوز الحقل والازهار التي تموج فيه زاهية عابقة .

عاد الاب الى المنزل لتناول طعام الغداء بعد ان اشتغل في الحقل فوق طاقته ، لان الغـد كان يوم الاحـد ، ويجب ان يسرع في عمله قبل ان تذوي شمس تموز سيقان الاعشاب .

اجتاز عتبة البـاب خائر القوى ، لاهث الانفاس . وبالرغم من ان الام قد اقبلت عليه لتقدم اليه معونتها ، وتحوطه برعايتهـا ، فقد كانت ملامحه تعبر عن الصلابة والقسوة ، وظل يجر نفسه الى زاوية الغرفة من غير ان يوجه اليها كلمة واحدة . فلما بلغ سطل الماء رفعه الى فمه بلهفة ومضى يعب منه ولا يرتوي .

وضعت الام على المائـــدة طبق الخبز المبلول ، وصحناً من البطاطا ، وقدحاً من الحليب . وأنشأ الرجـل يأكل صامتاً ، ويمسح اطراف اصابعه بسرواله من حين لآخر ، وهي عادة لزمتـه منذ كان يأكل اللحم .

أخذ يمضغ الطعام ببطء وذهول ، والشمس الحامية تستعر في الخارج ، وتسكب على الدنيـــا اشعتها اللاهبة فتحرق الارض ، وتبخر الماء ، وتذوي العشب . لا ريب في ان هذا النهار هو اشد

ايام الصيف حرارة ، فالطبيعة باسرها تضج ، وتتلوى ، وتكاد تختنق ، والهدوء الشامل الثقيل يسود في كل مكان ، لا يعكره الا طنين الحشرات ، كأن تلك المخلوقات تندب سلفاً اضمحلال الصيف الذي تنعم اليوم بسلطانه ومجده .

وفي الافق ، من ناحية الشمال ، كانت تتجمع بعض السحب ، ولكن الاب لا يريد ان يعتقد بأن الامطار يمكن أن تهطل في هذا النهار . على انه يقول : « قد تمطر السماء غداً ، فتكون سبباً آخر يمنعنا من الذهاب الى الكنيسة ، ولن يكون العيد التالي الا بعد أسابيع ثلاثة ، حين يبدأ العمل في الحقل ، ولا يعير أحد جواده . »

نهض من امام المائدة واتجه الى سريره وفي نفسه رغبة شديدة في النوم . وكانت الام قد غادرت المنزل لتعيد العنزة الى الحظيرة . وران الصمت على الغرفة ، فلم يكن يسمع سوى طنين الذباب وتكتكة الساعة . وفي ذلك الجو الثقيل نام الاب من غير أن يشعر .

بيد أنه لم يلبث ان استفاق مذعوراً . لا ريب في انه قد شاهد حلماً مزعجاً . انه لا يتذكره ، ولكنه يشعر بأنه لن يستطيع النوم بعد الآن ... لماذا ؟ ما الذي حدث ؟ خيل اليه انه يسمع حركة خفيفة ، فهل عادت الام ؟..

ولكن الصوت الذي سمعه ما زال يعلو حتى استحال الى زمجرة تحكي قصيف الرعد !

ترى هل نام طويلا ؟ كلا . ولعله لم ينم قط . هل كان

الصوت الذي سمعه هو صوت هطول المطر ؟ انه يجهل ذلك ، ولكن قطرة حارة تبلل عينه ، ويشعر فجأة بأنه لم يبق يستطيع الاحتمال ، وا يريد ان ينفجر في البكاء !

أيكون له غداً من القوة ما يساعده على الذهاب الى الكنيسة ؟ كلا ، لا ريب في انه لن يستطيع ذلك ... ولكنه سيحصد الاعشاب مهما حدث ، فان موسم الحصاد قد اوشك على الانتهاء .

وقصف الرعد مرة اخرى ، فتساءل الاب من جديد هل الصوت الذي سمعه هو صوت الرعد ؟ ونهض من فراشه واجتاز الغرفة ، فلمح زوجته تدنو منه بوجهها القلق الشفوق ، وتسأله بصوت متردد أهو في حاجة اليها ؟ الا ان حيرة الرجل كانت شديدة ، فلم يسمع سؤالها ، ولم يجبها بكلمة واحدة . وكان صوت خطواته يضاعف المه ، فاسرع الى مغادرة المنزل ، ووقفت المرأة المثقلة بالهموم تشيعه بنظراتها الحزينة .

شاهد الاب في الطريق عدداً من الفلاحين يهرعون الى عملهم في الحقول بعد ان تناولوا غداءهم . وكان يأسه يتضاعف لحظة بعد اخرى ، فخطر له ان يستنجد باحد هؤلاء الرجال الاشداء لاعانته في قطف الاعشاب ، لكنه خاطب نفسه بقوله : « كلا ، يستحيل ذلك ، يجب ان تهتم بعملك بنفسك . »

وجر نفسه بمشقة ، فوصل بعد جهد كبير ، وبدأ عمله لاهثاً ، وهو يوقن بأنه لن يستطيع اتمامه . على أنه شرع الحصاد بنشاط وسرعة أذهلتاه . وما هي الا فترة وجيزة حتى جهز الحزمة الاولى ، واخذ يتلفت حواليه ليرى هل أقبلت الام لتعينه في وضع

الحزمة على ظهره . ورآها تقترب من بعيد متباطئـة ، فملكه الغيظ ، وحاول ان يقوم وحده برفع الحزمـة ، لكنها كانت ثقيلة فادحة ، فلبث ينتظر .

قصف الرعد مرة اخرى ، ولكن خيل الى الشيخ هذه المرة أنه يقصف في رأسه . فاقترب من الحزمـة يحاول ان يحملها ، الا أنه اخفق وسقط على الارض خائر القوى .

وثارت في رأسه عاصفة من الخواطر :

« يجب ان يذهب غداً الى الكنيسة مهما كلفه الامر . »

« كيف السبيل الى حصد العشب قبل ان يبلله المطر ؟ »

« والابن ... يا للولد العاق ، انه لم يفكر قط في ابويه . »

« أين الأم ؟ ألا تريد ان تأتي ؟ »

على ان الأم قد وصلت ووقفت ازاءه قلقة ، مروعـة ، لا تجرأ على محادثته . وكان يبدو ان الأثنين يستشعران ألماً واحداً ، وتطوف في رأسيهما خـواطر متماثلـــة وصور متشابهـة . وكانا يفكران في ان المنزل بعيد ، والمطر يتجمع في هذه السحب السوداء المهددة ، فكيف السبيل الى انقاذ العشب ؟

الا انهما لم يستسلما الى اليأس ، فقد وثب الرجـــل بحميـة وحمل الحزمة بمعونة زوجته ، وسار بها خطوات خمساً مبعثرة ، ثم هوى على الارض ، والأم الى جانبه تنتحب .

وكان ما يزال في الأب بقيـة من حياة فصعّدهـا في نظرة ضاحكة وجهها اليها ، كتلك النظرات الحلوة التي كان يلقيها عليها منذ دهر بعيد .

يوميات ماري ماشينيف*

للكاتب الاميركي ستيفان ليكوك

استهلال :

هل نظرتم الى انفسكم في مرآة ؟ اما انا فاني احب ان انظر الى نفسي في المرآة ساعات طويلة . وكلما مرت الخادمة نينيتشكا او الخادم يعقوب ، وشاهداني اطيل النظر الى وجهي وجسمي ، حسباني مجنونة . على اني لست كذلك : انا في السابعة عشرة من عمري !

اليوم التالي :

بينما كنت اتنزه في الحديقة ، رأيت زهرة جميلة تحلم على غصن طويل ، فسألتها : أيتاح لقلبي ان يعرف الحب ؟ فأجابتني بالايجاب .

ولما عدت الى المنزل رأيت بصلة مسحوقة على الطريق بشكل مؤثر . لكم تعذبت تلك المسكينة ! لقد خبأتها في صدري ، وتركتها تنام على وسادتي طول الليل ، وبكيت من اجلها كثيراً .

يوم آخر :

نفسي جائعة ، وهي تطلب الحب بالحاح . كيف لم يتفق لي حتى الآن ان احب انساناً ؟ حتى الكسي الكوفيتش الذي سأزف اليه بعد شهر لا أكاد اشعر نحوه بشيء من الحب ...

* معارضة ليوميات ماري باشكير ستيف الشهيرة .

بعد يومين :

لمَ يسجنونني في المنزل ؟ لم ابق اطيق ذلك . لماذا يحولون دون اقدامي على الانتحار ؟ قمت في الليلة الماضية بمحاولة جديدة للتخلص من الحياة ، فوضعت على طاولة الليل زجاجة من حامض السولفوريك . ولما انبثق الصباح كانت الزجاجة ما تزال في مكانها ، لكني لم امت واأسفاه !

اليوم التالي :

وجدت في الطريق قرنبيطة نائمة في منعطف الشارع ، وقد عبثت بها اقدام الاولاد الاشرار ، فحاولت ان اعيد اليها نضارتها . وكانت الى جانبها بيضة مكسورة . فبكيت من اجلها احرّ بكاء .

هذا الصباح :

قلبي يخفق منذ الصباح . لقد مر رجل بمنزلنا ، ورأيته من نافذتي وهو ينحدر من الحقل الى ضفة النهر . يالله كم كان جميلاً ! ليس هو طويل القامة مثل الكسي ، بل صغير ومدور ، مدور مثل قرنبيطة امس المسكينة .

كان يرتدي ثياباً مخملية ، وفي فمه غليون ، وابتسامته تضيء محياه !

هل انا احبه ؟ لا ادري !

بينما كان يسير تحت نافذتي رميته ببرعم من الورد ، فلم يشاهده ، فالقيت عليه حينئذ لوحاً من الصابون وفرشاة اسنان ، لكني خطأته فظل متابعاً طريقه .

يوم آخر :

لقد وجد الحب اخيراً سبيله الى حياتي !

رأيت ذلك الرجل وكلمته . كان جالساً في الحقل يرسم لوحة فنية ، فدنوت منه وسألته عن اسمه . اسمه ! ان قلبي ليخفق كلما هممت بكتابته . كلا ، لن اكتبه ، بل سأهمس به همساً : انه اوتود انكسبيل .

ما اجمل هذا الاسم !

ثم سألته : ماذا ترسم ؟ الطفل يسوع !

فأجابني : كلا ، اني أرسم بقرة .

فتأملت اللوحة من جديد ، فتحقق لي انه يرسم بقرة .

حدقت حينئذ في عينيه وقلت له :

– سيكون هذا سراً بيننا لا نطلع عليه احداً .

بعد اسبوع :

ما أفتأ أذهب كل صباح لرؤية اوتو في الحقل ، فأجلس الى جانبه واحدثه عما افكر فيه ، وما أقرأ ، وما أعرف ، وما أشعر به ، وما لا أشعر به . فيصغي اليّ بهيئة الرجل الساهم الذي لا يصغي الى شيء . اني لمأخوذة بحبه ، وان نفسينا قد اتحدتا اتحاداً عجيباً .

اليوم :

ان اوتو قد لمسني ! لشد ما تبعث هذه الذكرى الرعشة في جسمي . بينما كنت واقفة الى جانبه على الضفة ، احتك كمي بزر صدريته ، فشعرت بالنار تشتعل في جسدي . سأقدم اوتو غداً الى ابي .

اليوم التالي :

تشاجر أبي واوتو ، وبلـــغ الغضب بأبي مبلغاً عظيماً فطرد حبيبي ، وحظر عليه دخول المنزل . لن استطيع رؤيته بعد الآن الا على ضفة النهر .

بعد عشرة أيام :

طلب اوتو مني تذكاراً ، فأعطيته احد دبابيس قبعتي ، الا انه فضل طوقي الماسي . لقد فهمت المعنى الذي اراده من هذا الطلب ، فأنا لديه اثمن المخلوقات ، كما ان الماس هو اثمن المجوهرات .

هذا الصباح :

طلب مني اوتو تذكاراً جديداً ، فأخرجت من محفظتي قطعة ذهبية ، واقترحت عليه ان نقسمها قسمين يحتفظ كل منا بقسم منها . فلم يجارني اوتو بهذا الرأي ، وآثر ان يحتفظ بالقطعة الذهبية كاملة . وقد فهمت ما أراد : ان تحطيم القطعة الذهبية معناه تحطيم حبنا ، ولذلك رغب ان يحتفظ بها كاملة كحبنا الكامل . ألا ما اسمى افكاره وما احبها الى قلبي

اليوم التالي :

اعطيته قطعة ذهبية جديدة ، فأعطاني بدلاً منهـــا قطعة من البرونز . لقد فطنت لمـا أراد بذلك : انـ حبنا سيكون نقياً كالذهب ومتيناً كالبرونز .

أخشى ان يعود الكسي ، فيعرف اوتو ذلك ويقتله .

بعد أيام :

تحدثت الى اوتو عن الكسي ، وقلت له انني خطيبته ، فـــ

يجبني بادىء الامر ، كأنه خشي ان يذهب به الغضب مذهباً عظيماً . ثم هيأ حقيبته ليرحل . فلما أنبأته بان الكسي لم يحضر بعد ، سكن روعه وأقلع عن الرحيل .

بعد ثلاثة أيام :

يعود الكسي بعد خمسة عشر يوماً . وقد قلت لأوتو أنه ينبغي لنا ان ننتحر لان حبنا يتطلب منا هذه التضحية ، فاقترح اوتو أن يقتلني أولاً ثم يموت جوعاً على قبري ليشعر بعذاب الحب ولذة التضحية . ألا ما أشد اخلاصه لي !

بعد خمسة أيام :

اقلعنا انا واوتو عن الانتحار واعتزمنا الهرب ، فاذا ما عاد الكسي كنا بعيدين عن هذه المقاطعة . وقد اقنعني اوتو بانه ينبغي لنا ان لا نذهب فارغي اليدين ، فانا انقل من منزلي كل يوم حقيبة مفعمة الى غرفة هذا الفارس الذي اعتزم ان يضحي براحته من اجلي . لقد نقلت كثيراً من الامتعة والاشياء الثمينة ، ثم حملت له اخيراً ، نزولاً على رغبته ، علبة المجوهرات ، وسلمته اياها ليحفظها في مكان امين . ونصحني بان استرد من المصرف المال الذي ادخرته ، ففعلت وقد اثبت اوتو انه يفيض حناناً ونبلاً ، اذ طلب اليّ اليوم ان احصل على تذكار من ابويّ ، وقال ان خير تذكار هو ساعة ابي الذهبية ، فوعدته بان آخذها من جيبه متى نام هذه الليلة . ولسوف نسافر غداً الى حيث يقودنا الحب ، ونعيش سعيدين هانئين .

مساء اليوم التالي :

ان نفسي ممزقة لان ما كنت اخشاه قد وقع . عاد الكسي وتشاجر مع اوتو . يا للمشهد المفجع ! كنت الى جانب اوتو في الحقل ، فبدا لنا الكسي عملاقاً ضخماً مهدداً ، فصرخت :

— اوتو ! يا غرامي ، اذهب ولا تقتله ...

فتردد اوتو هنيهة ثم عمل بنصيحتي ، ولكم كان شريفا بهربه ! ولكن الكسي ادركه واشتبكا في صراع عنيف . آه ، يا للمنظر المروّع ! امسك الكسي باوتو واخذ يلوّح به في الفضاء كالمقلاع ، فتمزق سرواله وسقط على العشب ، وانهال الكسي عليه رفساً بقدميه . ثم انهضه وحطم اللوحة الفنيـــة على رأسه . وامسك بساقيه وقذفه الى النهر . وكانت اللوحة قد دخلت في رأس اوتو فطاف على سطح الماء .

وعاد الكسي نحوي فحملني الى المنزل ، وهو يهمس في اذني كلمات الحب ...

اية مأساة تضج في قلبي ! سأتزوج الكسي ، ولكن صورة اوتو ستظل ماثلة في ذهني ، اوتو المسكين الذي يطوف في النهر داخل لوحته المثقوبة .

لا ريب في ان التيار سيحمله غداً نحو الدينبر ، فالى نهر البوغ ، ثم الى نهر الفولغا ، فبحر قزوين . ولكن بحر قزوين لا يتصل ببحر آخر ، وسيظل اوتو يطوف هناك بضع سنين ...

ان قلبي لينفطر ، وعيني تهان بالبكاء .

فهرس

الناس والآخرون ٥
الام ٢٠
سيمون القاسي ٥٥
علم الحقد ٦٥
الغراب ٩٠
الجدار ٩٨
عندما تنطفي ،الحياة ١٢٢
يوميات ماري ماشينيف ١٣٥

للمؤلف

في قصور الملوك

اساطير الامم

سعد زغلول

ابراهيم لنكولن

مدحت باشا

روبسبير

جمال الدين الافغاني

شوبان

هتلر الغازي

اسرار الحرب العالمية الثانية

كما كشفت عنها محاكمة نورمبرغ

لماذا احجم هتلر عن غزو انكلترا
كيف كان هتلر يضطهد قواده
سرّ احجام هتلر عن مهاجمة اسبانيا
لماذا اعلن الحرب على الاتحاد السوفياتي
كيف نظم الجيش الالماني الجديد
هتلر القائد الاعلى وواضع خطط الحرب
كيف انقذ موسوليني موسكو
البحارة الايطاليون ينقذون قناة السويس
لماذا احجم رومل عن دخول مصر
طيران هس الى انكلترا
اسباب تراجع هتلر عن موسكو
كيف قرر هتلر ان يموت في برلين

وغيرها من الاسرار التي كانت مجهولة حتى ظهور هذا الكتاب ، فالقي عليها انواراً كاشفة

يظهر في اوائل تموز ١٩٤٧

في سلسلة (من اسرار الحرب)

التي تنشرها دار المكشوف ، بيروت لبنان

أشهر العشاق

سلسلة رواية وأدب وتاريخ

تصدر عن دار المكشوف

تطالع فيها أطرف قصص الحب وأروع أخبار المغرمين

صدر منها :

١ - ايلويز وابيلار

يصدر تباعاً :

- بودلير في حياته الغرامية
- ميسالين ، الامبراطورة المتهتكة
- باغانيني ، ساحر النساء
- ديك الجن ، الحب المفترس
- ادغار بو والنساء
- عوني في شيخوخته الخضراء

ثمن النسخة ١٥٠ قرشاً لبنانياً

متعهد التوزيع : شركة فرج الله وحتي

تطلب في مصر من مكتب الكشاف للنشر ٢٧ ، شارع الملكة فريدة - القاهرة

وفي العراق من المكتبة العصرية - بغداد